نيكوس كزنتزاكيس



تصوُّف

(منقذو الآلهة)

ترجمة: سيد أحمد علي بلال

مقدمة المترجم

أدين بالشكر لكل من صوفيا كاوورا وخريستو اسكوبرا زميلي الدراسة والحياة في اثينا فلهما يرجع الفضل في ولوجي عالم كزنتزاكيس اللغوي الرحب .

داهمتني فكرة ترجمة «**تصوف**» عام ۱۹۸۳ وهو العام الذي احتفل فيه اليونانيون بمرور قرن على ميلاد نيكوس كزنتزاكيس وربع قرن على وفاته . لذلك فان ترجمة هذا الكتاب للعربية تدخل ضمن ذلك الاطار الاحتفالي .واستطيع ان اقول ، في حدود علمي ، ان هذه الترجمة هي الاولى لكزنتزاكيس التي تتم من اليونانية الى العربية مباشرة ، اذ ان التراجم السابقة لاعماله مرت عبر الانجليزية ، وربما لم تتأثر اعماله التي ترجمت سابقا الى العربية خصوصا وانها روايات ، إلاّ ان طابع هذا الكتاب : «**تصوف**» نفسه هو الذي يفرض ضرورة ترجمته من اليونانية مباشرة ، **لأنه نص فلسفي - شعري** ، يجسد رؤيا كزنتزاكيس الاساسية التي عبر عنها في ما بعد من خلال اعماله الروائية .

نيكوس كزنتزاكيس معروف لدى قارئ العربية برواياته «زوربا اليوناني» و«المسيح يصلب من جديد» و «الاخوة الاعداء» وسيرته الذاتية «تقرير الى الجريكو» ، لكن أعماله تفوق الثلاثين عملا أدبيا تتوزع بين الرواية وادب الرحلات والسيرة الذاتية والترجمة والتاريخ والنقد الادبيين .

ولد نيكوس كزنتزاكيس في جزيرة كريت عام ۱۸۸۳ وتلقى تعليمه في

جامعة اثينا ثم باريس على يد البروفسور برجسون . طاف كزنتزاكيس في بلدان اوربية كثيرة ، لكنه عاد واستقر في جزيرة «إيجنه» إبّان الحرب العالمية الثانية منقطعا للتأليف الادبي والفلسفي .

كتاب «**تصوف**» الذي يعود تخطيطه الاولي الى العام ١٩١٤ ، ربما مثل الرؤيا الأساسية لكزنتزاكيس الشاعر والمفكر معا . حينها كان كزنتزاكيس في الثلاثين من عمره ، وكان في زيارة للجبل المقدس «آيوس أوروس» بشمال اليونان يرافقه صديقه الشاعر سكيليانوس ، حيث امضيا ثلاثة اشهر كاملة متجوّلين بين أوديته . عموما كان لهذه التجربة أثرها المستقبلي على اعمال الكاتبين . أما الصياغة النهائية للكتاب فتمت في العاصمة الالمانية برلين مابين كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٢٢ ونيسان/ ابريل ١٩٢٣ ، لكن الكتاب لم ير النور إلاّ في عام ١٩٢٧ .

إحدى السمات الاساسية للتأليف عند كزنتزاكيس هي كتابة المخطط الأولي للتجربة التي يروم تناولها ، ثم استعادتها بعد زمن لوضعها في صيغتها النهائية . ففي الفترة التي كان يعيد خلالها صياغة «تصوف» كان يدون المخطط الأولي لرواية عن بوذا لم يكملها إلاّ عام ١٩٥٦ . أما رواية «المسيح يصلب من جديد» التي كتبها عام ١٩٤٨ فهي مجرد تكثيف رواني لقصيدة بعنوان «المسيح» كان قد كتبها عام ١٩٢١ ، و رواية «زوربا اليوناني» التي كتبها مابين ١٩٤١ - ١٩٤٣ استلهمها بعد ملاقاته اليكس زوربا الحقيقي في منطقة البلوبونيز بجنوب اليونان عام ١٩١٧ .

وكما إن المبدع يتأثر بقدر ورموز عصره . فان كزنتزاكيس نفسه لاينكر تأثير نيتشه وبرجسون عليه ، لكنه يؤكد تأثير «اوديسياس» و «زوربا» عليه ، ويكتب سيرته الذاتية في شكل تقرير الى «الجريكو» ، ورغم انه ترجم فاوست جوته ، وجحيم دانتي ، وأهم كتابات نيتشه الى اليونانية ، كما ترجم الالياذة والاوديسا من اليونانية القديمة الى اليونانية الحديثة ، وكتب أوديساه الخاصة التي تتكون من ٣٣٣٣٣ بيتا والتي اعتبرها بمثابة «ملحمة القبيلة

البيضاء » ، إذ تبدأ من حيث انتهت أوديسا هوميروس ، ورغم كل هذا لا يبدو انه كان يحاول ان يكون هوميروس عصره بقدرما كان ينحو ان يكون أوديسياس جديد ، وان يتابع رحلة ملك جزيرة ايثاكي الى عوالم اخرى . ان المسيرة والطريق الصاعد لاستشراف آفاق أوسع هي ملامح الأوديسيا ، التي تتركز في رؤيا كزنتزاكيس الشاب لتقوده الى الاكتشافات الجديدة نحو الجذور والاوراق .

« **تصوف** » هو المخطط الاولي لمسيرة الاكتشافات الموعودة ، وهو البذرة التي نبتت في مؤلفاته الروائية والشعرية اللاحقة ، لذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب « دليلا » يقود القارىء عبر عوالم كزنتزاكيس الروائية ، وفي الوقت نفسه يمكن النظر اليه كمحطة اساسية لقياس تطوره اللاحق .

مرحلة « **تصوف** » مثلت حقبة الارهاصات الكبرى لدى كزنتزاكيس ، إذ كان يجاهد اثناءها لكتابة رواية شعرية عن بوذا لم تكتمل إلاّ في سنوات حياته الاخيرة . وبعد أن أكمل « تصوف » في برلين غادرها الى ايطاليا قاصدا منطقة القديس فرنسيس بالذات ليكتب عنه في ما بعد كتاب « الفقير الى الله » .

رؤيا كزنتزاكيس الشاب الواردة في « **تصوف** » ليس لها امتداد تجريدي آخر ، فهو لم يحاول مثل هذا النوع المتناسق من الخطاب اللاهوتي ، وان توزعت مقاطع كاملة منه في اعماله اللاحقة . لقد ظل في ما بعد ملتصقا بالتجربة ، يتعلم ويعلم منها . وكما اسلفنا إن رواية « زوربا اليوناني » الذائعة الصيت استندت الى تجربة لقاء كزنتزاكيس بزوربا الحقيقي على السواحل الجنوبية لليونان حيث كان زوربا يعمل في قطع الاخشاب . وقال كزنتزاكيس عن تلك التجربة « لقد تعلمت من زوربا حب الحياة » . اما رواية « الكابتن ميخايلي » فهي قصة حياة والد كزنتزاكيس ، بينما سجل في « الاخوة ـ الاعداء » معاناته الشخصية حول الحرب الاهلية اليونانية .

كان كزنتزاكيس أمينا لرؤاه وتجاربه بقدر صمود هذه الرؤى والتجارب

أمام التساؤل . فالرجل الذي عاش في عصر عاصف اجتاحته عدة حروب «الحربان العالميتان الاولى والثانية والحرب الاهلية اليونانية» ، وشهد احتلال الايطاليين والالمان لبلاده ، ظل أمينا في دعوته للسلام وسط ركام النصف الاول من القرن العشرين . وقد خصه مجلس السلم العالمي بجائزة السلام لعام ١٩٥٦ . ويذكر الصحافي اليوناني اسبيروس اليكسيو في مقال له نشرته صحيفة «كل يوم» بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد كزنتزاكيس ان الكاتب اليوناني كان يتراسل مع الزعيم الهندي المهاتما غاندي داعية اللاعنف .

وحين وضع الفاتيكان كتابه «الاغواء الاخير للمسيح» ضمن القائمة السوداء ، كتب لهم قائلا «ايها الآباء المقدسون لقد قدمتم لي اللعنة ، أما انا فأقدّم لكم الشكر . أتمنى ان يكون ضميركم صافيا كضميري ، وان تكونوا اخلاقيين ومتدينين مثلي» .

على قبر كزنتزاكيس بهراكليون عاصمة كريت نحتت العبارات التالية : «لا أطمع في شيء... لا اخاف من شيء... أنا حر» . كان هذا شعاره الذي أخذه عن قصة هندية ، وضمنه روايته «تودارابا» . وتقول القصة ان هنديا كان يقود قاربه مقاوما تيار النهر الجارف الذي يدفع القارب نحو شلال صخري ، وبعد ان استنفذ كل طاقته في مقاومة التيار ترك مجذافيه وبدأ يغني مرددا «آه... فلتكن هذه الأغنية حياتي... أنا لا أطمع في شيء... ولا أخاف من شيء... أنا حر» .

«الذي لا يساوم» عنوان كتاب هيلين كزنتزاكيس عن زوجها نيكوس . أجل لم يساوم وانما سار بقاربه الى اقصى حدود طاقة الإنسان ، وظل يكتب ويكتب حتى وهو على فراش الموت ، كما تقول هيلين في مقدمة كتابه «تقرير الى الجريكو» .

تطمح هذه الترجمة الى المساهمة في التعريف بعنفوان كزنتزاكيس الشاب من خلال هذا النص الفلسفي الشعري «**تصوف**» الذي يعتبر بحق ملحمة للتساؤل .

كما تتوخى بعد قرن ونيّف على ميلاده ، وأربعة عقود على وفاته التذكير بالروح «القلقة المتمردة» - روح كزنتزاكيس التي تخطت الحدود الضيقة للغة اليونانيّة وفاضت على اللغات الأخرى بأبداعها المتنوّع .

تقول هيلين كزنتزاكيس عن «تصوف» : «حين اعطاني نيكوس كتاب تصوف عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون ، لكنني مازلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل اعماله» .

المترجم

تحيَّة إلى بانديللي بريفلاكي

(نيكوس كزنتزاكيس)

مدخل

نأتي من هاوية مظلمة وننتهي الى مثيلتها . أما المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسميها الحياة .

لحظة ان نولد تبدأ رحلة العودة . الانطلاق والعودة في آن . كل لحظة نموت . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة هو الموت .

ما أن نولد حتى تبدأ محاولاتنا في ان نخلق ونبتكر ، ان نجعل للمادة حياة . كل لحظة نولد . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة الدنيا هو الخلود .

في الاجسام الحية الفانية يتصارع هذان التياران :

الصاعد ، نحو التركيب ، نحو الحياة ، نحو الخلود .

الهابط ، نحو التحلل ، نحو المادة ، نحو الموت .

هذان التياران ينبعان من أغوار الجوهر البدائي . الحياة تفاجئ في البدء ، تبدو وكأنها خارجة على القانون ، كأنها طبيعة مضادة ، كأنها رد فعل على الينابيع المظلمة الخالدة . لكننا نشعر في اعماقنا أن الحياة هي الاخرى فوضى وفوران لانهائي للكون ، وإلاّ فمن أين تأتي تلك القوة التي تفوق طاقة البشر ؟ تلك القوة التي تقذف بنا من الغيب إلى الميلاد ثم تشد أزر كفاحنا نباتات وحيوانات وبشراً .

هذان التياران كلاهما مقدس .

واجبنا إذن أن ندرك الرؤيا التي تستطيع ان تستوعب هذين الإندفاعين الهائلين ـ الفوضويين واللانهائيين ، وتجانسهما ، وأن نضبط بهذه الرؤيا فكرنا وسلوكنا .

الواجب الأول:

أُحدِّق في العالم بوضوح وهدوء ثم أقول :

كل هذا الذي أراه وأسمعه وأتذوقه وأشمه وألمسه هو من صنع عقلي . الشمس تصعد وتهبط داخل جمجمتي ، من أحد صدغيَّ تشرق وفي الأخرى تغيب .

في عقلي تلمع النجوم . الأفكار والناس والحيوانات ترعى داخل رأسي الفاني . نحيب وأُغنيات تملأ تجاويف أُذني اللولبية . فيضطرب الهواء للحظة ، ينطفئ العقل فيختفي كل شيء... السموات والارض .

يهتف العقل «أنا وحدي الموجود» .

«في باطني تعمل الناسجات الخمس ، ينسجن ثم ينقضن نسيج الزمان والمكان ، الفرح والحزن ، المادة والروح ، كل الاشياء تجري من حولي وكأنَّها نهر ، تدور مندفعة ، الوجوه تنساب كالماء وتصطخب الفوضى ، لكنني أنا العقل أتقدم بصبر وبسالة ، هادئا وسط الدوَّار ، ولكي لا أتدحرج نحو الهاوية ألتصق بالدوار وأترك آثاراً . أُسقِط جسوراً ، وأفتح طُرقًا ، وأُسِّس للهاوية .

ببطء وبجهد شاق أتحرَّك بين الظواهر التي أُنجبها . أُميزها بطواعيَّة وأخلطها بقوانين ثم أُخضِعها لاحتياجاتي العملية الشاقة . أضع أساسا للفوضى ، أعطي للفوضى وجهاً هو وجهي .

لا أدري ما إذا كان ثمة جوهر خفي ومتعالٍ يعيش ويتحرك خلف الظواهر . ولكي لا أتساءل أعتبره لا يعنيني . إني أنجب الظواهر بطواعية ، أرسم بألوان عديدة حجابا خياليا أمام الهاوية . لا تقل لي أزل الحجاب لأرى اللوحة . فالحجاب هو اللوحة نفسها .

أنا عامل الهاوية . أنا المتفرج على الهاوية . أنا النظرية والممارسة . أنا القانون . خارجي لا يوجد أيُّ شيء على الإطلاق .

عليك أن تدرك وأن تقبل حدود العقل الإنساني بلا محاولات عصيان لاجدوى منها ، وعليك ضمن هذه الحدود الصارمة أن تعمل بلا شكوى وبلا توقف ـ هذا هو واجبك الاول .

عليك ان تشيِّد ببسالة وقوة ، على الفوضى المتحركة (تَقاةْ)* العقل شديدة الاستدارة ، وشديدة الإضاءة ، لكي تدرس وتميز كل شيء كما يدرس رب الاسرة السنابل ويفرز الحبوب من الروث .

عليك أن تميِّز بوضوح ، وتتقبل بشجاعة هذه الحقائق المرّة ذات الخصوبة والقيمة الانسانية ، والتي تعتبر قطعة من لحم جسدنا :

ـ بامكان عقل الانسان ان يدرك الظواهر فحسب ، لكنه عاجز أبداً عن ادراك الجوهر :

ـ انه عاجز حتى ان يعقل كل ظواهر المادة ، وانما يستطيع فقط ان يعقل بعض ظواهرها .

ـ وبتحديد أكثر : انه لايستطيع حتى ان يعقل ظواهر المادة وانما فقط يستطيع ان يعقل العلاقات التي تربطها ببعضها البعض .

ـ ان العلاقات التي تربط بين ظواهر المادة ليست مستقلة فعلا عن الانسان . انما هي من صنع البشر ايضاً .

وهي ليست أقوى ما ينجب الانسان ، لكنها الأكثر مساعدةً له في ضروراته العملية والعقلية .

ضمن هذه الحدود يظلُّ العقل هو السلطان الشرعي الوحيد . وليست ثمة سلطة أُخرى عداه في ربوع مملكته .

أعترفُ بهذه الحدود ، أنصاعُ لها بصبر وشجاعة وحب . وفي المنطقة الواقعة داخل هذه الحدود أُطلق العنان لكفاحي وكأنّي حر . أطوِّع المادة .

* التَقاة : قطعة أرض صلبة ومستديرة يدرس عليها القمح بعد حصاده لتفرز الحبوب عن غيرها . (المترجم)

أجبرها على أن تكون موصلاً جيداً لعقلي . أفرح بالنباتات والحيوانات والناس والآلهة وكأنهم أبنائي . أشعر بالكون كله يتجمع من فوقي ثم يتبعني وكأنه جسد .

في لحظات مفاجئة وعصيبة يلمع في داخلي صوت يقول : «هذا كله مجرد لعبة فاسدة لا غاية لها ، بلا بداية وبلا نهاية وبلا معنى» ، لكنني أوصل نفسي سريعا بعجلة الضرورة ، فيبدأ الكون كله يدور دورته حولي من جديد .

عليك بالانضباط . انه الفضيلة العليا ، وبه وحده تتكافأ الرغبة بالقوة ، وتثمر محاولة الانسان .

وبذلك تستطيع بصفاء وشدة ان تحدد السلطة المطلقة للعقل على الظواهر ، وعجز العقل في ما وراء الظواهر ، قبل ان تتقدم للخلاص وإلاّ فلن تجد للخلاص سبيلاً .

الواجب الثاني:

لا أقبل الحدود ولا تسعني الظواهر . إنّي أختنق! فلتعش هذه المعاناة العميقة الشاقة . هذا هو الواجب الثاني .

العقل يتكيّف ، فله القدرة على الصبر ويعجبه اللهو ، لكن القلب يتوحّش ولا يقبل لهو العقل . انه يقفز ويصطخب لكي يمزق شباك الضرورة .

ما قيمة ان أُهيمن على الارض والماء والهواء ، وان انتصر على الزمان والمكان ، وان ادرك بأيّ القوانين تتناغم وتأتي المرّة تلو الاخرى هذه الصورة المنعكسة على المرايا ، التي تصعد من صحراء العقل الملتهبة ؟

أشتاق الى شيء واحد هو : ان ادرك ما الذي يختبئ خلف الظواهر . ما هو هذا السر الذي ينجبني ثم يقتلني ؟ وهل خلف التيار المنساب والمرئي للعالم يختبئ حضور ثابت لامرئي ؟

اذا كان العقل لا يستطيع وليس من شأنه أن يحاول التقدم خارج حدود بوّابة الخروج البطونية اليائسة فهل يستطيع القلب ؟!

بعيداً... بعيداً... بعيداً في ما وراء الانسان ، أبحث عن السوط اللامرئي الذي ينهال عليه ويدفعه للكفاح . وفي ما وراء الحيوانات أجهد نفسي لأرى ذلك البدائيَ الذي ينافح صانعاً ومهدماً ، وهو يسكب مرّة أخرى الأقنعة التي لا تحصى لتنطبع على تيار اللحم .

وفي ما وراء الحيوانات أُحاول أن أُميّز آثار الخطى الأُولى للامرئي على الوحل الطيني .

صوت في داخلي يصيح آمراً :

احفر . ماذا ترى ؟

ـ بشراً وطيوراً ، مياهاً وحجارة .

احفر ايضا... ماذا ترى ؟

ـ افكاراً... واحلاماً... بروقا... وخيالات .

احفر أيضا . ماذا ترى ؟

ـ لا أرى شيئاً! ثمة ليل عاصف غليظ كالموت ، لعلّه الموت .

احفر ايضا!

ـ آه لا أستطيع ان أعبر شبه الجدار المظلم! أسمع أصواتاً ونحيباً ، أسمع حفيف أجنحة آت من الضفة الأُخرى .

لا تبك! لا تبك! إنها ليست من الضفة الأُخرى . كل هذه الأصوات والنحيب وحفيف الأجنحة هي قلبك .

بعيداً عن العقل ، وفي الهاوية المقدسة للقلب أتوازن مرتجفاً .

إحدى قدميّ تحط على تراب حقيقي ، والأُخرى تبحث عبر الظلام عن الهاوية .

أستشعر خلفي كل هذا الجوهر المكافح يصارع من خلف الظواهر ليلتحم بقلبي . لكن الجسد يقف حائلا بيننا ليفرّقنا ، والعقل يقف حائلا بيننا ليفرّقنا .

ما هو واجبي ؟ واجبي ان أُحطم الجسد ، أن أتدفّق وألتحم باللامرئي ، أن يصمت العقل لكي أسمع صياح اللامرئي .

أسير على حافة الهاوية وأرتجف . هناك صوتان في داخلي يتهدّجان .

يقول العقل : «لماذا نتوه بحثاً عن المستحيل ؟ يجب ان نعترف بحدود الانسان داخل السور المقدّس للحواس الخمس» .

لكن صوتا آخر بداخلي ولنسمّه الحاسة السادسة أو لنسمّه القلب يقف معترضاً ويصيح :

«لا ، لا ، لا تعترف أبداً بحدود الانسان! عليك ان تحطم الحدود! ان تنكر ماتراه عيناك! ان تموت وانت تردد لا يوجد موت» .

يرد العقل : «عيني صافية وخالية من كل أمل ، ترى كل شيء ، ترى الحياة لعبة بل مجرد عرض يقدّمه ممثلو مسرح جسدي الخمسة .

أتابع العرض بمتعة وغرابة تفوق الوصف ولكنني لا أملك بساطة القرويّ لكي أصل الى يقين وأصعد على المسرح مشاركاً في الكوميديا الدامية .

أنا الحاوي صانع المعجزات الذي يجلس ساكنا عند تقاطع طرق الحواس ، يرى العالم يولد ثم يغيب . يرى الجموع تتحرك وتصيح في دروب اللاجدوى المتعددة الألوان

«أيُّها القلب... أيُّها القلب الفج... اهدأ وانصع» .

لكن القلب ينتفض ويصرخ :

«أنا القرويُّ أقفز على المسرح وأتدخل في مسيرة العالم!» .

لا أزن ولا أقيس ولا أتكيف . أتبع دقاتي العميقة . أسأل وأكرر السؤال طارقاً أبواب الهاوية : من الذي يبذرنا في هذه الارض دون إذن يطلب منّا ؟ من الذي يقتلعنا من هذه الارض دون إذن منّا ؟

أنا مخلوقٌ مؤقّتٌ وضعيف . مصنوع من طين وأحلام لكني أُدرك ان في داخلي تصطخب كل قوى الكون .

أريد للحظة واحدة ، وقبل ان تحطّمني هذه القوى ، ان أفتح عينيَّ فأراها أمامي . هذا هو هدفي الوحيد في الحياة .

أريد ان أجد مبررا لكي أستمر على قيد الحياة ، ولكي أتحمل المشهد اليومي المرعب للمرض والقبح والظلم والموت .

بدأت من نقطة مظلمة هي الرحم ، وأسير نحو نقطة مظلمة أخرى هي القبر . إحدى القوتين تقذفني من هاوية مظلمة والأخرى تسحقني ، بلا انقطاع ، في هاوية مظلمة .

أنا لست ذلك المذنب الذي سقود النبيذ لكي لا يتلوث عقله ، فانا اقفز على الممر الواقع بين الهاويتين السحيقتين بذهن صاف ومتيقظ .

أكافح لكي اكون قادرا على هز رأسي للرفاق محييا قبل ان أموت ، وأن

أمد يدي لهم مصافحا ، ولتنحل عقدة لساني فألقي عليهم قولا بليغا أحدثهم فيه عن تصوري لهذه المسيرة وعن تكهناتي بالاتجاه الذي تسير فيه ، وعن مدى حاجتنا جميعا لضبط ايقاع خطواتنا وقلوبنا على بعضها البعض .

كيف أتوصل الى شعار ، الى كلمة سر متفق عليها كما يفعل المقدمون على تنفيذ مؤامرة ؟ كيف أتوصل الى قول بسيط أقدّمه للرفاق ؟

أجل... ان هدف هذه الارض ليست الحياة وليس الانسان . فلقد عاشت بدونهما وستعيش لاحقا بدونهما . انهما الشرارات المؤقتة لدورانها العنيف .

فلنتحد ونتماسك بقوة ، ولتلتحم قلوبنا ونبدع . وبقدر ما ستستمر هذه الارض محتفظة بحرارتها ، سنكون في مأمن من مفاجآت الزلازل والبراكين والثلوج والشهب . فلنبدع عقلا وقلبا على هذه الارض ، ولنعط معنىً انسانياً لكفاح التسامي لما بعد الانساني . هذه المعاناة هي واجبك الثاني .

الواجب الثالث:

العقل يتكيّف يود لو يعبّئ سجنه ،عرشه بانجازات عظيمة ، وان ينقش على الجدران مآثر بطوليّة ، ويرسم على السلاسل أجنحة الحرية .

القلب لا يتكيّف . ثمة أياد تطرق أبواب سجنه من الخارج ، وأصوات عشق تتسرب الى مسامعه عبر الريح ، فيستجيب القلب وهو مفعم بالأمل ، مفجرا السلاسل ، وفي احدى توهجاته تبدو له السلاسل وقد تحوّلت الى أجنحة . لكن سرعان مايسقط القلب مرة اخرى دامياً . وقد فقد الامل وبدأ يتملكه الخوف الكبير .

طوبى لتلك اللحظة...

أترك وراءك القلب والعقل وتقدم الى أمام وأخط الخطوة الثالثة .

عليك أن تنجو من البساطة الفجة للعقل الذي ينظّم ويأمل في السيطرة على الظواهر .

عليك ان تنجو من رعب القلب الذي يبتغي ويأمل العثور على الجوهر .

انتصر على العقبة الأخيرة الأكثر اغراءً : الأمل . هذا هو واجبك الثالث .

نحن نحارب لأنا نستمتع بذلك . نغني حتى إذا لم نجد أذنا تصغي لغنائنا . نعمل حتى إذا لم نجد رب عمل يدفع لنا أجرنا اليومي عند الأصيل . نحن لانعمل للغير ، إذ نحن أرباب العمل . ان كروم هذه الأرض ملك لنا . انها لحمنا ودمنا . نحن الذين نحفر لها التربة ، ونشذب فروعها ونجني عنبها ونعصره ، ونشرب النبيذ . ونغني ونبكي ، وتصعد الى رؤوسنا أفكار وأحلام .

في أيِّ مواسم دورة حقل الكروم اختار لك الحظ ان تعمل ؟ في موسم الحفر أم في موسم جني العنب أم في موسم الاحتفالات ؟ انها جميعا شيءٌ واحد .

أحفرُ وأبتهجُ بكل دورة . أغني رغم عطشي وإرهاقي منتشيا بنبيذ المستقبل .

أحمل الزجاجة المليئة وأعيش ثانية الجهد الذي لحق بجدّي وبجدّه من قبله ، وعرق العمل يتصبّب منسابا على الجمجمة السكرى .

أنا سلّة مليئة باللحم والعظام والدم والدموع والعرق ، بالرغبات والرؤى .

أعدو للحظة في الريح ، أتنفس ، يخفق قلبي ، يضيء عقلي ، وفجأة تنفتح الارض وأضيع .

داخل سلسلتي الفقريّة الفانية يصعد ويهبط تياران ، وفي احشائي رجل وامرأة يتعانقان . يتحابان ويتباغضان . يكافحان .

يصيح الرجل متهيّجاً «أنا المدرار الذي يودُّ ان يمزّق النسيج ، وان يقفز خارج منسج الضرورة . انا الذي يريد ان يتجاوز القانون وأن يحطّم الأجساد وان ينتصر على الموت . أنا البذرة» .

يرد صوت آخر منطقي وعميق ، صوت أُنثويٌ هادئٌ وواثق : «أجلس واضعة احدى قدمي على الاخرى ، وأدع جذوري تذهب عميقا في القبور . أتقبّل البذرة وانا ساكنة بلا حراك ثم أرعاها . أنا كُلّي حليب وضرورة .

أتشوّق للرجوع الى الوراء . للهبوط الى الحيوان ، والهبوط أكثر وأكثر الى الشجرة ، والى اعماق القبور والتربة ، وألاَّ اتحرك الى الامام . اني اقبض على الانفاس وأحبسها ولا أدعها تنطلق . أكره الشعلة التي تتصاعد . أنا الرحم» .

أصيغ السمع للصوتين فكلاهما لي . أفرح بهما ولا أرفض أيّاً منهما .

قلبي رقصة للحواس الخمس . قلبي رقص مضاد نقيض للحواس الخمس .

قوى لاتحصى ، مرنيّة وخفيّة ، تفرح وتتبعني حين أتقدم صاعداً بمشقة عكس التيار العظيم .

قوى لاتحصى ، مرنيَّة وخفيَّة ، تهدأ وتسكن حينما أتراجع الى الوراء ، هابطا عائدا الى التراب .

ينهمر قلبي . لا أطلب بداية العالم ولا نهايته . أتبع إيقاع قلبي الرهيب وأذهب .

ألق التحية على الاشياء كلها في كل لحظة . أرسل نَظَرك بتؤدة ووله ثم قل : الوداع .

حدِّق في ما حولك : كل هذه الاجساد التي تراها ستتحلّل . لايوجد خلاص .

أنظر : يعيشون ، يعملون ، يحبون ، يأملون .

انظر مرة اخرى : لايوجد أيُّ شيء!

أجيال من البشر تصعد من التراب ثم تسقط ثانية في التراب .

تتجمع فضيلة الانسان ومحاولته ، تكبر وتتصاعد حتى السماء .

الى اين نحن ذاهبون ؟ لا تسل! أصعد وأهبط . لا توجد بداية ولاتوجد نهاية

توجد هذه اللحظة الحاضرة ، مليئة بالمرارة ومليئة باللذة .

أفرح بها كاملة .

الحياة خير والموت خير ، والارض مستديرة كصدر أنثوي في قبضتيَّ القديرتين .

أمنح نفسي كل شيء ، أحب ، أتألم ، أكافح . عالمي يمتد لأبعد مما يتخيل العقل .

قلبي سر عميق وغامض .

أيتها النفس ، لو تستطيعين ، أصعدي على الامواج الصاخبة واحتوي البحر كله بنظرة من عينيك . سيطري على قُوى إدراكك حتى لاتتزعزع وغوصي مرَّة أخرى في عمق البحر وواصلي الكفاح .

جسدنا سفينة تسبح في مياه عميقة زرقاء .

ما هو هدفنا : ان تتحطم سفينتنا!

لأنَّ المحيط الاطلسي مليء بالشلالات ، فإن الأرض الجديدة توجد فقط في قلب الانسان . وذات لحظةٍ مفاجئةٍ ستغرق أنت وسفينة العالم ، في إحدى الدوامات الصاخبة بشلال الموت .

واجبك ان تبحر بهدوء وشجاعة ، وبدون أمل نحو الهاوية ، وأن تقول : لا يوجد أيُّ شيء! لايوجد ايُّ شيء! لاتوجد حياة ولايوجد موت!!

أحدّق في المادة والعقل وهما يتحركان ، وهما يلتحمان ، وهما يتناسلان ، وهما يغيبان كأنهما أطياف من العشق لا وجود حقيقياً لها ثم اقول : هذا ما أريده .

أعرف الآن أنني لا أطمع في شيء ولا أخاف من شيء . لقد تخلصت من العقل ومن القلب وصعدت الى أعلى . أنا حر . هذا ما أبتغيه ولا أبتغي شيئاً عداه فلقد كنت أطلب الحرية .

المسيرة:

تفاجئني صيحةٌ قويةٌ تأتي من داخلي : «النجدة»

من الذي يصيح ؟

أجمع قواك وارهف السمع . قلب الانسان ليس إلا مجرَّد صيحة . التصق بصدرك لكي تسمعها . شخص ما يكافح بداخلك هو الذي يصيح .

ان واجبك في كل لحظة ، ليلاً ونهاراً ، في الفرح وفي الحزن ، وفي خضم مشاغل الحياة اليومية ، هو ان تميِّز هذه الصيحة ، متهدِّجة كانت أم متماسكة ، كيفما صدرت عنك ، سواء كنت مبتهجاً أم باكياً ، فاعلاً أم مفكراً . وأن تكافح لكي تحس بهذا الذي يصيح وهو يواجه الخطر ونجنِّد أنفسنا لتحريره .

في اقصى حالات فرحنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح : «إني أتألم ، أريد أن أفر من فرحك . انني أتميَّزُ من الغيظ» .

في أقصى حالات يأسنا نسمع بداخلنا أحدا يصيح : «لست يائساً . أني أكافح . أقبع فوق رأسك . أطلُ من جسدك . أنبثق من الارض ، لا تسعني العقول ولا الأسماء ولا الأفعال» .

من اكثر فضائلنا أريحية ينبري أحد الناس واقفاً ثم يصيح بيأس :

«ضيقةٌ هي الفضيلة ، اني لا أستطيع أن أتنفس . الجنة ضيقة وصغيرة ، إنها لاتسعني . إلهكم يبدو كإنسان . أنا لا أريده!»

أسمع الصيحة المتوحشة وأنهض واقفاً ، ولأول مرة تأخذ المعاناة الصاعدة في داخلي شكلاً لصوت إنسان حقيقي... تواجهني مباشرة ثم تناديني بكل

وضوح باسمي وباسم أبي وباسم سلالتي .

هذه هي اللحظة العظيمة الحاسمة . إنها شعار المسيرة . فلا تبدأ اذا لم تسمع هذه الصرخة وهي تخترق أحشاءك!

تبع مرتبتك في المقام الأول وفي المقامين الثاني والثالث من التهيّؤ بصبر وضعة .

أرهف السمع أثناء نومك وخلال ممارسة الجنس وفي الابداع ، وخلال فعل من فعالك الطوعية ، أو اثناء صمتك صمتا عميقا يائسا ، فلربما تسمع فجأة هذه الصيحة وتتقدم إلى أمام .

كان قلبي يهدر حتى تلك اللحظة ، يصعد ويهبط مع الكون . لكنني حين بغتتني الصيحة إنقسمت احشائي والكون الى معسكرين .

بداخلي شخص يواجه الخطر . رفع يديه صائحا يستغيثني : «أنقذني» .

بداخلي شخص يتقدم صاعداً ، يسير وهو يصيح : «النجدة!»

أيٌ من الطريقين المقدسين عليّ أن اختار ؟ وفجأة أدرك أن حياتي كلها بل وحياة الكون باكمله مرتبطة بقراري هذا .

من بين الطريقين أختار الطريق الصاعد . لماذا ؟ ليس لأيّ حجج عقلية أو يقين ، فعند تلك اللحظة الحاسمة أستوعب كم هو غير خبير هذا العقل ، بل وكل القناعات الصغيرة للانسان .

أختار الطريق الصاعد لأن قلبي يدفعني نحو هذا الاتجاه . يناديني قلبي : «إلى الأعلى... الى الأعلى» فأتبعه بكل ثقة .

أشعر إن هذا ما تطالبني به تلك الصيحة البدائيّة الرهيبة . أقفز إلى جانبها وأطابق قدري بها .

بداخلي يكافح شخص ليرفع حملاً ثقيلاً ، يراجع حساب الجسد والعقل منتصراً على العادة والكسل والضرورة .

لا أدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب . أتبع خطاه داخل صدري الفاني . أرهف السمع إلى لهاثه وأقشعر حين أتحسّسه .

من هو ؟ أنصب له أذني . أضع علامات . أستنشق الهواء ثم أصعد الى أعلى . أبحث في اتجاه الاعالي . ألهث . ابدأ المسيرة السرية الرهيبة .

١) السلّم الأول: أنـــا

أنا لست طيبا ، ولست نقيا ، ولست مطمئنا . السعادة لا تطاق والشقاء لا يطاق . أنا مليء بهمهمات ذعر وظلام . أتدفق دموعاً ودماءً داخل زريبة لحمي الساخنة هذه .

أخاف أن أتكلم . أتزيّن بأجنحة مزيفة . أصيح وأغنّي وأبكي لكي لا أخنق صيحة قلبي القاسية .

أنا لست الضوء . أنا الليل ، لكن شعلة تربض ما بين أحشائي وتأكلني . أنا الليل الذي يأكله الضوء .

أخاطر يائسا مترنحا في الظلام . أحاول ان أقفز من نومي ، وان أنتصب واقفا لبعض الوقت ، قدر ما أستطيع .

نَفَسٌ صغير ومتمرد ، يكافح في داخلي يائسا علّه ينتصر على السعادة ، وعلى الارهاق وعلى الموت .

أمرِّن جسدي كحصان محارب ، أحافظ عليه بسيطاً وقوياً وطيّعاً . إني أقسو عليه وأواسيه ، إذ ليس لي حصان سواه .

أحافظ على عقلي يقظا وصافيا وحاداً . أثق في ان يكافح بلا انقطاع هذا النور الذي يلتهم الظلام ، إذ ليس ثمة معمل غيره يستطيع ان يحوّل الظلام الى نور .

أحافظ على قلبي متوهجا ، شجاعا ، متوتراً . أحسُّ بكل الاضطرابات والتناقضات في قلبي ، بمباهج الحياة ومنغصاتها ، لكني أكافح من أجل ان أطوّعها لايقاع الكون الذي يتصاعد . الصيحة في داخلي تطلق نداءً للتجنيد ،

تصيح : «أنا الصيحة . أنا السيد إلهك! أنا لست ملجأً ولا داراً ولا أهلاً . أنا لست الأب ولا الإبن . أنا لست الروح . أنا قائدك! أنت لست خادما لي ولست لعبة بين كفيّ . أنت لست صديقي ولست إبني . أنت رفيقي في المعركة . عليك ان تحمي المضايق التي كلّفتك بحمايتها . وألا تتركها للأعداء . وواجبك الذي تستطيع ان تؤديه هو ان تكون بطلا في موقعك . عليك أن تحب المخاطر . «ما هو الشأن الاكثر صعوبة ؟ »... «هذا ما أطلبه منك!» أيُّ الطرق تسلك ؟ الصاعد الوعر... هذا هو طريقي أيضا فاتبعني!

تعلّم ان تطيع . وحده الذي يذعن لإيقاع أعلى من إيقاعه يستطيع ان يكون حراً .

تعلم ان تصدر الأوامر . وحده الذي يستطيع ان يأمر يستحق ان يمثلني على هذه الارض .

عليك ان تحب الواجب ، وأن تقول : عليّ أنا وحدي تقع مسؤولية إنقاذ الارض . وإذا لم تُنقذ فأنا المذنب .

عليك ان تحب كل شخص بمقدار مساهمته في الكفاح ، وألاّ تبحث عن أصدقاء وإنما عن رفاق!

عليك ان تكون متوتّراً وممتعضاً وغير متكيّف أبداً . وحين تتملكك إحدى العادات عليك ان تحطمها . ان أكبر الأخطاء هو الاستسلام للرضا .

إلى أين نحن ذاهبون ؟ هل سننتصر أبداً ؟ في أيّ إتجاه تنحو كل هذه المعركة ؟

إلزم الصمت! فالمحاربون لايتساءلون أبداً .

انحني وأرهف السمع الى هذه الصيحة القتالية التي تنبعث من أحشائي . أبدأ في تصور وجه القائد ، أتحقّق من صوته ثم انصاع الى أوامره الشاقة بفرح ورهبة .

أجل... أجل... أنا لاشيء... أنا مجرد نعومة فسفورية على المروج المبتلة . دودة تعسة تطلق صفيراً وتحب ، تصيح وتتكلم لساعة أو لساعتين عن أجنحة ما ، وبعد

ذلك تغلق فمها بالتراب . هذه هي الاجابة الوحيدة التي تقدمها القوى المظلمة .

لكن الصيحة العظمى الخالدة بداخلي تنادي قائلة : ما الذي تريده ولا تستطيع ان تبلغه ؟ أنا واثق بأنني جزءٌ من الكون المرئي واللامرئي . نحن شيءٌ واحد... القوى التي تعمل بداخلي ، والقوى الاخرى التي تدفعني لأعيش ، والقوى التي تدفعني لأموت ، هي بالتأكيد ، قواك أنت أيضا .

أنا لست جسداً معلقاً لا جذور له في العالم . أنا ترابٌ من ترابه ونَفَسٌ من أنفاسه .

لا أخاف وحدي ، ولا آمل وحدي ، ولا أصيح وحدي . قطاع كبير وقوى هائلة من الكون تخاف وتأمل وتصيح معي .

أنا جسر شيِّد بغير إتقان . أحدهم يعبرني فأتحطم وراءه . أحد المناضلين يخترقني ، يأكل جسدي وعقلي لكي أفتح له الطريق ، ولكي ينجو مني . انه هو الذي يصيح وليس أنا .

ب) السلُّم الثاني: السلالة

الصيحة لاتصدر عنك . لست أنت الذي يتكلَّم . أسلافٌ بأعداد لا تحصى هم الذين ينطقون عبر فمك . أنت لا تعبِّر عن رغبتك الشخصية وإنما تعبر من خلال قلبك عن رغبات أعداد لا تحصى .

ان موتاك لم يعودوا يقبعون في التراب ، وإنما صاروا طيوراً وأشجاراً وهواء . إنك تجلس بينهم وتستطعم بلحمهم ، وتستنشق أنفاسهم . لقد صاروا أفكاراً وأحاسيس وهاهم يحددون مشيئتك وسلوكك .

إن أجيال المستقبل لا تتحرك في الزمن اللاّأيقيني بعيداً عنك . انهم يعيشون وينشطون وتتملكهم الرغبات داخل قلبك وكليتيك .

واجبك الأول وأنت توسّع أناك في هذه اللحظة المؤقتة التي تسير فيها على الأرض ، هو أن تفلح في أن تعيش المسيرة الخالدة ، أن تحيا المرني واللاّمرني من ذاتك .

أنت لست فرداً . انك وحدة من جيش كامل . لحظة واحدة تحت الشمس تضيء وجهاً من وجوهك وما أن تضيأه حتى تتحول عنه لتضيء وجهاً آخر ، أكثر شبابا منه .

سلالتك هي الجسد الأكبر ، فهي الماضي والحاضر والمستقبل . أنت تعبيرٌ لحظويٌ ، أما عشيرتك فإنها الوجه . أنت الظل وعشيرتك اللحم .

أنت لست حراً . جموع من الأيدي تقبض على يديك وتتحرك . حين تغضب يرغي ويزبد أحد أسلافك عبر فمك . وحين تحب يتلعثم أحد سكان الكهوف ، وعندما تخلد إلى النوم تتفتح القبور ويمتلئ رأسك بأشباح الموتى .

رأسك ترعة من الدماء تتجمع على ضفافها قطعان وقطعان من ظلال موتى ، ويشربونك لكي يحيوا .

يصيح الموتى بداخلك : «لا تمت كي لا نموت» .

«لم نتمكن من الإبتهاج بالنساء اللاتي رغبناهن ، فلتتمكن انت وتضاجعهن . لم نتمكن من تحويل أفكارنا إلى أعمال . حولها أنت إلى أعمال . لم نستطع القبض على ملامح وجه آمالنا لنتحقق منها ، فلتتحقق أنت منها ، وتكمل عملنا!

أكمل عملنا! ندخل جسدك ليل نهار ، ونخرج منه صائحين . نحن لم نذهب ، لم نبارح جسدك ، ولم نهبط إلى الأرض . من داخل أحشائك نواصل الكفاح . خلصنا »!

لا يكفي ان تسمع في داخلك صخب الأجداد . لا يكفي أن تشعر بهم يتدافعون أمام عتبة عقلك .

انهم جميعا يتدافعون لكي يتشبثوا بحرارة عقلك ، ولكي يبلغوا مرة أخرى ضوء الأيام .

لكن عليك أن تحدد أياً من الأسلاف سيتحطم خلف جحيم دمائك وأيهم سيصعد مرّة أخرى ألى الضوء والتراب .

لا تحزن من أجلهم! اجلس ساهراً في الممر الأسفل لقلبك ثم أختر . قل : «هذا الظل متواضع ومظلم كأنه حيوان ، فليذهب! وهذا صامت ومتوهج ، انه أكثر حيوية مني ، فليشرب دمائي كلها » .

عليك ان تضيء دماء الاسلاف المظلمة . عليك أن تشكل من أصواتهم خطابا . نظِّف مشيئتهم ، وسِّع جبهتهم الضيقة الصلبة . هذا هو واجبك الثاني .

ولأنك لست عبداً ، لذلك فَحالَ ولادتك وُلد معك احتمال جديد ، واندفاعة حرّة تهز الظلمات العميقة لقلب عشيرتك .

وسواء أردت أم لم ترد ، فأنك تحضر معك إيقاعا جديداً ، ورغبة جديدة ، وفكرة جديدة ، وحزناً جديداً . إنك توسع جسدك الأبوي أردت أم لم ترد .

عليك واجبٌ كبير . فأنت لا تتحكم في وجودك الضئيل الصغير . انت قطعة نرد حيثما يُلْعبُ ، ولو للحظة قدَر شعبك .

كل فعل لك يتردد صداه في آلاف الاقدار . وحيثما تسير وتكتشف وتقيم مأواك فإن نهر الأجداد سيجري وينفذ إليك .

حين تخاف فإن خوفك سيفصم عُرَى أجداد لا يُحْصَون ، ويحط من قيمة أرواح لا تحصى من قبلك ومن بعدك ، وحين تقوم بعمل شجاع فإن سلالتك بأكملها ستهب وتستبسل .

«أنا لست فرداً واحداً... أنا لست فرداً واحداً» . يجب أن تحرقك هذه الرؤيا في كل لحظة .

أنت لست جسداً ضعيفاً ويائساً . فخلف قناعك الترابي المتحرّك يقبع وجه منذ آلاف السنين . إن عواطفك وأفكارك أكثر قدماً من قلبك ومن عقلك .

جسدك المرئي هو الرجال والنساء والصبيان الذين يعيشون خصوصية عشيرتك .

أسلافك وأحفادك الذين لم يولدوا بعد هم جسدك اللامرئي .

وحده الذي يتخلّص من جحيم ذاته ، هو الذي يشعر بالجوع حين يرى أحد أبناء جنسه يتضوّر جوعاً . ويقفز فرحاً حين يرى إمرأة ورجلاً من عشيرته يتبادلان القبل .

كل هؤلاء هم أعضاء جسدك المرئي العظيم . أنك تتألم وتفرح متبعثراً حتى نهاية الأرض في آلاف الأجساد التي لها صلة قرابة بك بالدم .

كافح من أجل جسدك الأكبر كما تكافح من أجل جسدك الأصغر . كافح من أجل ان تكون كل أجسادك قوية وبسيطة وكاملة . وأن يضاء عقلها وان ينبض قلبها متوهجاً وباسلاً ومتوتراً .

كيف تستطيع أن تكون قوياً ، ومتوهجاً ، وشجاعاً ، إذا لم تتخلل هذه الفضائل جسدك الأكبر كلّه ؟ كيف تستطيع أن تنجو إذا لم ينج دمك كله . إذا ضاع أحد أبناء عرقك فإنه يدفعك معه في ضياعه... أحد أعضاء جسدك يتلف .

عليك أن تعيش هذه الهوية بعمق ، ليس كفكرة مجرّدة وإنما كلحم ودم . أنت صفقة واحدة في شجرة عِرْقِك الكبرى . عليك أن تشعر بالتراب وهو يتصاعد من الجذور العميقة ثم يتوزع في الفروع والصفق .

ما هو هدفك ؟ أن تكافح لكي تقبض على الفرع بقوة . وسواء أكنت صفقة أم زهرة أم ثمرة ، يجب أن تتحرك ، وتتجدّد ، وتتنفس الشجرة كلها من خلالك .

إن واجبك وأنت تقدّم خدمتك التطوّعيّة لبني جنسك هو أن تشعر في داخلك بكل الأسلاف . واجبك الثاني هو أن تضيء انطلاقتهم وأن تواصل عملهم . واجبك الثالث هو ان تنقل إلى إبنك الواجب الأكبر وهو أن يتجاوزك .

المعاناة تشتد داخلك ، شخص يكافح لكي يخرج ، ولكي ينفصل من جسدك ولكي ينجو منك .

بذرة في كبيتك . بذرة في عقلك . تريد ان تفارقك بلا عودة ، إذ لم تعد أحشاؤك تستوعبها ، إنها تكافح في سبيل الحرية .

« يا أبت... قلبك لايسعني ، أكاد أتحطم ، أريد أن أخرج . يا أبت إني أكره جسدك ، وأشعر بالخجل لإلتصاقي بك . أريد ان أخرج!

لقد تحولت إلى حصان كسول ، إن أرجلك عاجزة عن اللحاق بدقات قلبي . إنّي على عجل... سأترجّلُ ، سأصعد على جسد آخر ، وسأتركك في الطريق ورائي » .

لكنك أيها الأب تفرح وأنت تسمع صوت إبنك وهو يعلو فتقول « كل شيء لإبني . كل شيء له . أنا القرد وهو الانسان . أنا الانسان وهو ابن الانسان .

قوة ما بداخلك ، قوة أعلى منك تمر ممزّقة جسدك ثم تناديك :

« قامر بالراهن واليقيني ، قامر به من أجل المستقبل والمجهول . لا تأخذ معك شيئا من اجل الآتي . إني أحب الخطر ، ربما تضيع ، وربما تنجو . لا تسل . ضع العالم كله وفي كل اللحظات بين يدي الخطر . أنا بذرة ذلك الذي لم يولد بعد ،آكل أحشاء سلالتك واصيح! » .

ج) السلّم الثالث : الانسانية

أنت لاتتكلم وحدك ، ولا تتكلم سلالتك وحدها من خلالك ، ففي داخلك تصطخب وتتصايح أجناس لاتحصى من البشر، بيض وصفر وسود .

تحرر من السلالة ايضا . جاهد لكي تحس بالانسان المكافح في كل مكان . أنظر كيف تميز عن الحيوان ، وكيف يكافح لينتصب واقفاً ، ولينظم الصيحات العشوائية ، وليحمي الشعلة متّقدة ، وليحافظ على العقل بين عظام رأسه .

فلتملأك الرحمة على ذلك المخلوق الذي تنصّل عن القرد ذات صباح عارياً بلا حماية ، وبلا قرون وبلا اسنان ، لا يحمل سوى نار مشتعلة داخل رأسه الرخو .

انه لا يدرى من أين أتى ، وإلى أين سائر ، لكنه يريد عبر الحب والعمل والقتل ان يسود على الارض .

حدّق في البشر . إحزن من أجلهم . تأمل نفسك بين الناس ، واحزن من أجلها . نحن نتحسس بعضنا البعض في عتمة الحياة المظلمة . نبحث ، ونسأل ، ونرهف السمع ، ثم ننادي : «النجدة!» . نعدو ، ونعرف اننا نعدو نحو الموت ، لكننا لا نتوقف ، بل نواصل العدو .

نعدو ونحن نحمل معنا مصباحاً يضيء وجهنا ولحظتنا . ودون إبطاء نسلّم المصباح إلى إبننا وحالاً ينطفئ نورنا ونهبط الى العالم السفلي .

الأم تنظر إلى الأمام نحو بنتها ، والبنت تنظر الى الامام ايضا ، تنظر إلى أبعد من جسد زوجها ، إلى إبنها . أنظر كيف يسير اللامرئي على هذه الارض .

كلنا ننظر إلى أمام بلا رحمة ، مدفوعين من الخلف بقوى هائلة وغامضة لا تخضى .

قف على جسدك الترابي المؤقت وانظر وراءك صوب القرون الماضية . مذا ترى ؟

حيوانات كلها شعر ودماء تصعد من الطين متمردة .

حيوانات كلها شعر ودماء تهبط من قمم الجبال متمردة .

الجيشان يلتحمان متصايحين ، كإلتحام رجل بامرأة ، ثم يصيران كتلة من الدماء... عقل وطين .

حدّق... شعوب تصعد كما يصعد العشب من التراب ، ثم تسقط ثانية الى التراب سماداً خصباً لبذور المستقبل ، فتسمن الارض بالرماد والدماء وبعقول البشر .

أعداداً لا تحصى من البشر يضيعون في منتصف الطريق... يولدون ثم يموتون عاقرين . فجأة تنفتح هاويات في الظلام ، وتتحطم شعوب . وعبر زوبعة همجية تأتي أوامر بعدم الصمود فيجفل القطيع البشري ويتبعثر .

وفجأة نحس من تحتنا ومن حولنا وداخل هاوية قلبنا بالقوى العمياء العديمة القلب والعقل . التي لاتشبع .

نبحر الى عرض البحر الصاخب ، فنحس بها في برق أصفر ، نودع ثروتنا وأبناءنا وآلهتنا كالبيضة داخل قشرتها .

القرون أمواج مظلمة وسميكة ، دماءٌ تعلو وتهبط ، وكل لحظة تأخذ شكل هاوية تنفتح .

حدّق في عرض البحر المظلم وأنت ساكن . حدّق في الهاوية كل لحظة وجهاً لوجه دون خيال أو خجل أو خوف . لكن هذا لا يكفي . عليك ان تتقدم خطوة أخرى :

كافح من أجل ان تعطي معنى لصراعات الانسان المتصلة . مرّن قلبك كي يسيطر قدر استطاعته على حيز اكبر من ساحة المعركة .

عُد القهقرى لتُحلّق على قرن واحد من مسيرة الانسان ، ثم على قرنين ، ثم على ثلاثة ، ثم على عشرةِ قرون... ثم على أكثر ما تستطيع .

مرّن عينيك على مشاهدة شعوب بأكملها تتحرّك على حقب زمنيّة كبيرة .

استغرق في هذه الرؤيا بصبر وبحب ودون أدنى غرض حتى يتنفّس العالم بداخلك شيئاً فشيئاً ، وحتى يتوهّج المتصارعون ويلتحموا في قلبك ، حتى يتعارف الاخوة .

ان القلب يؤالف كل ما يقسمه العقل . انه يتجاوز ساحة الضرورة ويحوّل الصراع الى حب .

حافظ على توازنك وانت على الهاوية الجائعة ، وكافح لكي تؤسس الرؤيا . افتح بوابة الغموض التحتيّة المتعددة الألوان ، حيث النجوم والبحار والبشر والافكار . أعطِ شكلاً لما لا شكل له . للاعقلانيّة المطلقة .

اشحن قلبك بكل أنواع الرعب . أعد تركيب كل التفاصيل . إنّ دورة الخلاص واحدة وعليك أنْ تكملها!

ما معنى السعادة ؟

هو أن تعيش كل أنواع التعاسة .

ما معنى الضوء ؟

أن ترى بعين غير معتمة كل الظلمات .

نحن حرف بسيط ، مقطع واحد ، كلمة واحدة من الأُوديسا العظيمة .

نحن مستغرقون في أُغنية عظيمة تلمع كما تلمع الأعشاب البحرية طوال فترة استكانتها في الأعماق .

ما هو واجبنا ؟

أن نرفع رؤوسنا عن النص لحظة ، بقدر ما تحتمل أحشاؤنا ، ونتنفس الأغنية البعيدة عابرة المحيطات .

علينا أن نلتحم في أتون المغامرات . علينا ان نعطي لرحلتنا معنى ، وأن نكافح دون انقطاع مع البشر ، ومع الآلهة ، ومع الحيوانات . وان نمسح بصبر

وتؤدة على قوى إدراكنا ، دهناً عظمياً من دهون عظامنا ، من إيثاكي .

ومثل جزيرة تصعد من العدم ، سيصعد عمل الانسان ببطء وبكدّ تمديين .

وفي هذه الحراثة الدائمة ستعمل الأجيال وستحب وستأمل وستغني .

أجيال جديدة من البشر يطأوون جثث الأجداد ويواصلون العمل فوق نهوية ، من أجل ان يروّضوا السر الرهيب... كيف ؟ سيقومون بذلك وهم يزرعون حقلا ، أو يقبلون إمرأة ، أو يتفحصون حجراً أو حيوانا أو فكرةً .

تأتي زلازل فتهتز الجزيرة . يتحطم أحد أطرافها بينما يصعد طرف آخر تحت تأثير أمواج الأعماق .

إن العقل هو أحد العمال البحريين وعليه ان يردم الهاوية .

من كل هذه الأجيال ، ومن كل هذه التعاسات والأفراح وحالات العشق والحروب والأفكار ينبعث صوت هادئ وصافٍ . إنه هادئٌ وصافٍ لأنه يحتوى على كل خطايا ومخاوف الانسان المكافح الذي يتجاوزها ويصعد .

من بين كل هذه المادة الانسانية يصعد كائنٌ ما بالأيدي وبالأقدام مختنقا بالدموع والدماء وهو يجاهد لكي ينجو . مم يريد النجاة ؟ يريد ان ينجو من الجسد الذي يحيطه ، ومن الشعب الذي يتشبث به . ومن لحم الانسان وعقله وقلبه .

ـ ايها السيد . .من أنت ؟ انك تنتصب أمامي وكأنك من قبيلة الانسان .

ـ الحصان البحري الاسطوري بيدين تمتدان الى السماء وقدمين مثبتتين في الطين .

ـ أنا ذلك الذي يتقدّم أبداً .

ـ لماذا تتقدّم ؟ إنك تتعب وتكافح . تناضل لكي تتنصل عن الانسان... تتنصل عن الانسان والحيوان . أناشدك ألاّ تتركني .

ـ أناضل وأصعد لكي لا أغرق . أبسط يديّ وأتشبّثُ بكل الأجساد الحارة . أنتصب فوق عقلي ورأسي لكي أتنفس . في كل مكان أغرق ولامكان يسعني .

- لِمَ ... ترتجف ؟

- تشعر بخوف . طريق تصعد لانهاية له . رأسي شعلة تحاول ابداً ان تنفصل عن جسد . لكن روح ... تهب دائما وتطفئني .

ان كفاحي كله يتعرض لخطر بين لحظة وأُخرى . ان كفاحي كلّه يتعرض لخطر في كل لحظة لاجساد . اخطو وأسير داخل اللحم كالسائر في الليل وانادي :
« النجدة »

د) السلم الرابع: الأرض

أنت لاتصيح ، وسلالتك لاتنادي عبر صدرك الفاني.. وأجناس البشر من بيض وصفر وسود لايصيحون وحدهم في جوانح قلبك . ان الارض كلّها ، بمياهها وأشجارها ، بحيواناتها وبشرها ، وبآلهتها تصيح في صدرك .

ان الارض تنهض على عقلك فتشاهد للمرة الأولى ، جسدها كملا . .تقشعرُ .

إنها حيوان يأكل ويتوالد ويتحرّك ويتذكّر . تجوع الارض فتأكل بنيها : نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً . . تطحنهم داخل فكيها المظلمين ، وتمرّرهم عبر جسدها ثم تدلقهم على التراب .

تتذكر وتستعيد ما أصابها من قبل ، وداخل قلبي تتفتح ذاكرتها وتسود على الوقت .

ليس القلب هو الذي يقفز وينبض داخل الدم ، وانما الأرض بأكملها تقفز وتنبض ، وهي تلتفت وراءها لترى مرّة أخرى صعودها الرهيب على الهاوية .

أتذكر صحراء كاملة من مادة فسفوريّة مشتعلة . أعبر وقتا فوضوياً لا يحصى وحيداً يائساً وصائحاً في البريّة .

شيئاً فشيئاً تتضاءل الشعلة ، يترطب رحم المادة ويحيا الحجر ، تتفتّح وتصعد مرتجفة في الهواء ورقة صغيرة خضراء . تتشبث بالتراب وتتماسك . ترفع رأسها ويديها وتقبض بشدّة على الهواء والماء والضوء وتحلب الكون .

تحلب الكون وتحاول ان تمرّره عبر جسدها الرقيق كالخيط لتجعله زهرة فثمرة فبذرة ، ولتجعله خالداً .

يقشعر البحر وينشق الى قسمين . تصعد من قراره المكين دودة قلقة عمياء .
لقد انهزمت الوطأة ، ودُفع الغطاء الحجريُ للموت .
الاشجار والحيوانات تتصدّر القيادة ، ممتلئة بالجنس والجوع .
أحدّق في الارض بعقلها الطيني وأقشعرّ وانا أواجه الخطر مرّة أخرى .
كان يمكن ان اغرق ، وان اضيع في الجذور التي تشرب الطمي بسعادة .
كان يمكن ان أتحطم داخل جلد الحيوان الضخم هذا . أو أترنح الى الأبد داخل دماغ الاسلاف القدامى المظلم والدامي .
لكنني نجوتُ . عبرت النباتات ذات اللّحاء السميك . عبرتُ الاسماك والطيور والوحوش . وصرت انساناً .
لقد صرتُ إنساناً والآن أكافح لكي أتركه خلفي!
«لا شيء يسعني . لا شيء يسعني . أريد ان أنعتق» .
هذه الصرخة ظلّت لدهور طويلة تسحق وتثمر داخل أحشاء العالم . تقفز من جسدٍ لجسد ، ومن جيلٍ لجيل ، ومن نوعٍ لنوع . وفي كل مرّة تصير أكثر قدرة على إلتهام اللحوم ، وأكثر قوة . كل الآباء يصيحون «أُريد ان انجب إبناً يتفوقني»!

في اللحظات الرهيبة التي تمر بها هذه الصرخة عبر أجسادنا نحس بقوة تعود الى ماقبل ظهور الانسان ، لاتعرف الرحمة ، تدفعنا .نحس من خلفنا بفيضان طينيّ مليء بالدماء والدموع والعرق ، وبأصوات الفرح والنشوة والموت .

ريح عشقيّة تهب على الارض . الدوّار يصيب الأحياء جميعاً فتتلاحم في البحار والكهوف والهواء وتحت التراب ، وتتناقل من جسدٍ إلى آخر نبأً عظيماً ومبهماً .

والآن فقط ، نحن نستشعر الخطر من خلفنا ، نبدأ بغير وضوح التكهن بمعنى الكفاح ، لماذا كانت الحيوانات تولد ثم تموت ، ومن قبلها النباتات ، ومن قبل كل هذا وذاك قوى الاحتياطي اللاعضويّة .

مو ساتنا وعرفاننا بالجميل وتقديرنا لرفاقنا القدامى في معركتهم . لقد عصبو و حبوا وماتوا لكي يفتحوا لنا الطريق لنعبرعليه .

نحن مثلهم ، داخل الشهوة نفسها ، في اللهفة وفي البلبلة . نعمل لشخص آخر سيتقدّم خطوة الى الامام مع كل فعل شجاع نقوم به .

ان كفاحنا سيكون له هو الآخر أيضا ، هدفٌ أعلى ، إذ سيأتي من بعدنا من سيستخدم جهودنا وتعاستنا وجرائمنا ويقدّسها .

إن كفاحنا قفزة ، نَفَسٌ يتطاير ويصطخب ، يحوّل المادة الى ثمر ، يمرُّ بـالحيوانات خالقا الانسان ، ومتشبثا بما فوقه كصقر خاطف مزمجر .

لقد أتى دورنا! إنه يعمل فينا عمله . يُصَنِّعُ بداخلنا المادة فيحوّلها الى روح . يطأُ عقولنا ، يقفز واثقاً على البذرة ويصارع ، مخلِّفا جسدنا وراءه لكي ينعتق .

كأن هذه الحياة مشهد مصيدة خالدة ، لزوجٍ غير مرئي يطارد الخلود من جسدٍ الى جسد ، يطارد الزوجة التي لايمكن ترويضها . ونحن ، كل المدعوّين لحضور حفل مراسم الزواج ، نباتات وحيوانات وبشر ، نقفز مرتجفين امام بيت الزوجيّة ، وكل فرد منا يحمل برهبة رموز الزواج المقدّسة . البعض يحمل الذكر ، والبعض الآخر يحمل الرحم .

الرؤيا:

بدأت حين سمعتَ الصيحة . عبرت من معركة الى أُخرى بكل أنواع التدريبات العسكريّة للإنسان المحارب .

حاربت داخل الخيمة الصغيرة لجسدك ، لكنها بدت لك ساحة ضيّقة ، فاختنقت ثم انسكبت لكي تنعتق منها .

عسكرت عند سلالتك . إمتلأت أيادٍ وقلوباً .

صعدت مع دمك الى الاسلاف ذوي الرهبة ، وتحرّكتَ مع الموتى والاحياء ، ومع الذين لم يولدوا بعد ، لكي تحارب .

وفي إحدى المرّات تحرّكت كل الاجناس معك . إنتظم الجيش الإنساني خلفك ، واصطخبت كل الارض وكأنها معسكر .

وهكذا صعدت ، وعلى القمة الشاهقة تفرّع كل مخطط المعركة الى تلافيف عقلك ، وامتزجت كل النزاعات العسكريّة داخل معسكر قلبك الغامض .

وفي الخلف انتظمت الحيوانات والنباتات مثل خيوط الامدادات لجيوش الانسان الامامية المتصارعة .

والآن ها هي الارض كلها تتشبث بك وتصير جسداً لك ، وتصيح وسط الهاوية .

كيف أُحاصر هذه الرؤيا الرهيبة بالكلمات ؟

أنحني على الهاوية وأرهف السمع ، يتقدّم أحدهم وهو يلهث ، على الطريق الصاعد الخطير والغامض ، يبذل جهده ، يكافح باصرار ليصعد ، لكنّه يصطدم بالعوائق في طريق تقدّمه ، أحدهم يهبط مسرعاً على طريق سرّي ، منحدر ومعبّد .

يختنق النفس بالتيار الغليظ الهابط إلى اسفل ، ويسير سيراً حلزونياً .
وفي لحظة تمتد لأكثر ما تتحمله أيّ حياة ، تتوازن الرغبتان المتعاكستان .
هكذا تُولد الأجساد ، هكذا يُخلق العالم ، وتتوازن القوتان المتصارعتان داخل الاحياء .
وذات لحظة يلتفُ بالواحد الذي يصعد ، جسدٌ محبوبٌ ، جسده هو ، فيعيقه في حركة صعوده ، لكنه ينعتق سريعاً ، ينعتق بالعشق ، وبالموت ، ثم يواصل المسيرة .
يطأ النباتات ويعطيها شكلاً ويعبؤها ، يعسكر بكامل عتاده ، ماذا يعني « بكامل عتاده ؟ » يعني انه مزودٌ بالاشواق ، وبالقوة اللتين تمكّنانه من الانعتاق .
يحاول الوقوف على قدميه . يتنفّس بجهد لكنه يشعر بالإختناق . يترك على النبات ما يستطيع تركه من الثِقَل والتوجُس والسكون ، يتخفّف ويقفز بكامل هيئته ، مرة أُخرى ، أبعد وأعلى مما كان ، خالقاً الحيوانات . ثم يعسكر بكامل هيئته في كليتيها . «بكامل هيئته» هنا تعني مرّة أخرى : مزوّدٌ بالاشواق والقوة اللتين تمكّنانه من الانعتاق .
ان الاجساد تتنفس ، تستطعم قواها وتستجمعها ، وفي كل لحظة عشق تتحطم ، تستهلك كل شيء وتستفرغ لكي تترك روحها لإبنها . أيّ روح ؟ روح الاندفاع الى أعلى! تتطهّر بين أجساد الحيوانات ببطء وشدة ، ثم تترك عليها قدر ما تستطيع من المعاناة والضعف والظلام .
تنهض مرّة اخرى وهي أخف مما كانت عليه ، ثم تقفز محاولة الانعتاق . ان هذه الإندفاعة نحو الحريّة تخلق ببطء وعبر الجهاد مع المادة - رأس الانسان .
والآن نحس به ، ونحن مرتعبين ، يجاهد مرّة أخرى لكي يتعدّانا ويقذفنا خلفه مع النباتات والحيوانات ، ليقفز بعيداً . لقد أتت اللحظة وسط مشاعر الفرح والحرقة الهائلين . لننضمّ نحن أيضاً ، نحن الطلائع ، الى قوى الاحتياطي والإمدادات .

خلف تيار جسدي وعقلي ، وخلف تيار سلالتي والبشر أجمعين ، وخلف تيار الحيوانات والنباتات ، أرى وأنا أرتجف ذلك اللامرئي يطأ كل المرئيات ويصعد . وتحت وطأة قدمه الثقيلة أسمع كل الاحياء وهي تتحطَّم .

وجهه عابس ، وجهه صامت ومظلم ، بعيد عن الفرح والحزن ، بعيد عن الأمل . أرتجف . هل انت إلهي ، جسدك مليء بالذاكرة ، كمن قضى سنوات عديدة في السجن . إنك تزيِّن يديك وصدرك بأشجار غريبة ، وبوحوش يكسوها الشعر ، وبمغامرات دامية وصرخات . ايُّها السيد ، ايُّها السيد . انك ترسل أصواتاً كالحيوان . قدماك مضرجتان بالدماء والطين . وفكَّاك الثقيلتان تهرسان كحجر الطاحون .

تمسك بالأشجار وبالحيوانات ، تطأ الانسان وتصيح ، تصعد المنحدر اللانهائي المظلم للموت وانت ترتجف . الى اين تذهب ؟ يتزايد الالم ويتزايد النور والظلام . تبكي ، تمسك بما هو فوقي ، تستطعم دمي ، تتشجَّع وتركل قلبي ، أحملك في صدري . أخاف منك وأعطف عليك .

كأنَّنا وارينا شخصاً ما التراب بعد ان تيقَّنا من موته ، لكنا الآن نسمعه وهو ينادي : النجدة! ثم يرفع حجارة القبر بمعاناة تفوق طاقة أجسادنا وأرواحنا ، منتصباً نحو آفاق أكثر علوّاً ، مُتنفساً بحريَّة .

ان حجارة القبر الثقيلة التي يرفعها تشمل كل قول ، وكل فعل ، وكل فكرة . ان جسدي وكل العالم الذي أتأمله بسمائه وأرضه هي الاخرى حجارة القبر ، والإله يجاهد كي يرفعها .

تصيح الاشجار والحيوانات والنجوم : «اننا نضيع» . يدان كبيرتان ترفعهما كل المخلوقات نحو السماء طلبا للنجدة .

يبدو الإله بركبتين معقودتين تحت ذقنه ، ويدين مبسوطتين نحو الضوء ، وقدمين ملتصقتين بظهره ، وكأنه لفة خيط تتسلل الى كل أعضاء الجسد .

حين أفتح ثمرةً أعرف ان البذرة تتعرى في داخلي مثلها ، وحين أتحدث مع البشر أميِّز شيئاً كهذا يحدث داخل عتمة عقولهم الداكنة .

يجـهد الإله بـكلّ شيء . بأيدٍ مـشـدودة نحـو الضوء... أيّ ضـوء ؟ خـارج وفوق كل شيء .

ليس الألم وحـده هو جوهر إلهنا ، ولا الأمل في حـياة مسـتقبليّة ، أو في حيـاتنـا الارضيـة هذه ، ولا الفرح أو الأنـتصـار . ان أي ديانة ترفع من قدْر وجه واحد من هذه الوجوه الأسـاسـيّة للإلـه عن طريق العـبادة تضيّق من سـعة قلبنا وعقلنا .

إن جـوهر إلهنا هو الكفـاح ،الذي ينبـسـط ويعـمل فـيـه بلا انقطاع الألم والفرح والأمل .

ان عمليّة الصعود ، والمعركة ضد التيار المعاكس يولّدان الألم ، لكن الألم ليس سلطاناً مطلقاً ، فكل انتصار ، وكل توازن مؤقت على طريق الصعود ، يملؤ بالفرح كل المخلوقات التي تتنفس ، وتسـتطعم ، وتعشق ، وتنجب .

لكن الأمل يتبعث على الدوام من أعماق الفرح والألم ، فننعتق من الألم ونوسّع رقعة الفرح ، ويبدأ الصعود الأليم من جديد ، ويولد الفرح من جديد ، ويقفز مرّة اخرى أمل جديد .

فالدورة لاتـنغلق ابداً ، إذ هي ليـسـت مجـرد دورة ، وإنما دائرة حلزونيّة متصاعدة أبداً ، تـوسّع وتبسـط وتطوي كفاحها الثلاثي الابعاد ، الذي يحتـوي الالم والفرح والأمل .

ماهو هدف هذا الكفاح ؟ يتـسـاءل العقل البـشـري المـسكين والمـصلحي المـرّة تلو الأُخـرى ، نـاسـيـا ان النَّفس العظيم لايعـمل ضـمن زمـان ومكان انسـانيين ، كما لا يعمل ضمن سببيّة إنسانية .

ان النفس العظيم أكبر من الاسئلة البـشريّة ، وله اندفاعات كونـيّة هائلة يتصورها عقلنا الضئيل تناقضات ، لكنّها تتآخى داخل جوهر الألوهيّة . وتحارب مجتمعة كرفاق سلاح أوفياء .

يتـوزّع النَّفس الأسـاسـي في كل الاتجـاهات ، يندفع ويحـارب ، يفـشل وينجح ، وهو يمارس نشاطه . انه عجلة الريح .

ما هي تلك الإندفاعة من كل إندفاعات الإله ، التي يستطيع الانسان ان يدركها ؟

انّها الاندفاعة التالية وحدها : ان نميِّز خطاً أحمر على الارض . أن نميِّز خطاً أحمر ودموياً يتصاعد من المادة الى النباتات ، ومن النباتات الى الحيوانات ، ومن الحيوانات الى البشر .

ان الإيقاع الممتد دون انقطاع ، من قبل ظهور الانسان على سطح هذه الارض ، هو المسيرة الوحيدة للامرئي . أما النباتات والحيوانات والبشر ، فهي عتبات السلّم التي يخلقها الإله ليطأها خلال صعوده .

الطريق الصاعد شاق ورهيب ولانهائي ، وفي هذه الهجمة سينتصر الإله ، هل سينتصر ؟ هل يوجد نصر ؟ هل توجد هزيمة ؟ إن التلف سيصيب جسدنا ، وسيعود الى التراب ، لكن ما الذي سيؤول اليه ذلك الذي يتعداه!

كل هذه المخاوف تتراجع ، لأن كافة الآمال وحالات اليأس تختفي في دوامة الإله اللولبية الشرهة .

ان الإله يضحك ، ويرثي ، ويقتل ، ويشعل فينا النار ، ثم يتركنا في منتصف الطريق نحو الإحتراق .

وهكذا يتملكني الفرح وأنا أشعر ببداية العالم ونهايته تخترقان صدغيَّ بلمح البصر .

في لحظة كلمح البرق أتأمل بذر وإنبات وإزهار وإثمار وإندثار كل شجرة وحيوان وانسان ونجم وإله .

ان الارض بأكملها بذرة زرعت في تجاويف عقلي ، وكل السنوات التي لا تحصى والتي قضتها تكافح داخل رحم المادة المظلم لكي تتفتح وتثمر ، تعبرها في رأسي متفجرة كوهج برقيّ عابر .

آه! لو نلحظ هذا البرق ونمسك به للحظة ثم ننظمه في قول انساني .

فلنعضِّد تلك اللحظة التي يكمن فيها كل شيء ، يكمن فيها ما مضى وما سيأتي ، قبل ان تضيع الدوامة العشقية للغة وتغدو تعبيراً سكونياً .

كل كلمة تشبه قارب نجاة ، نرقص حولها مسكونين بالقشعريرة ونحن نعرف ان الإله هو ذلك المقيم الرهيب بداخلها .

مهما تعيش النشوة فانك لن تستطيع ان تحولها الى قول ، ولكن رغم ذلك عليك ان تناضل لكي تحولها الى قول . حارب بالاساطير وبالأمثال والإستعارات . حارب بالكلمات الشائعة ، وبالكلمات النادرة ، بالصيحات وبقوافي ، لكي تمنح النشوة لحماً ودماً وتجسدها .

ان الإله يفعل ذلك . هو النشواني الأعظم ، الذي يتكلم ، يكافح كي يتكلم ببحار ونيران ، بأجنحة وألوان ، بأظافر وقرون . كي يستطيع القبض على نشوته .

وأنا أيضا ، كغيرى من المخلوقات الحيّة ، أجد نفسي في مركز الدوّامة الكونيّة . أنا عين الانهار الشاسعة وكل ما حولي يرقص ، ثم تضيق الدورة فجأة فتتدفق السموات والارض باندفاع شديد في أعماق قلبي الحمراء .

يتبيّنني الإله برهبة ومحبّة ،فليس له أمل غيري ، ثم يقول : «ذلك النشوانيُ الذي يلد كل شيء ، ويفرح بكل شيء ، ويمحو كل شيء . .هو إبني» .

الممارسة:

أ: العلاقة بين الإنسان والإله.

الدرع والشكل الاكثر قوة للنظرية ، هو الممارسة .

الممارسة ليست ان ترى فحسب كيف تقفز الشرارة من جيل الى آخر ، وانما ان تقفز وتحترق معها .

الممارسة هي البوابة الكبرى للخلاص ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع الاجابة على اسئلة القلب .

فداخل ابعاد العقل المعقّدة الكثيرة الإلتواء تجد الممارسة أقصر الطرق . انها لاتجد وانما تنشئ أقصر الطرق ، وهي تقاطع يمنة ويسرة مقاومة المنطق والمادة .

لماذا ناضلت خلف الظواهر لاصطياد اللامرئي ؟ لماذا كل هذه المسيرة الحربية والعشقيّة عبر جسدك ، وعبر السلالة ، وعبر الإنسان والحيوان والنبات ؟ لماذا يجري الزواج السري خلف هذه النضالات الشاقة ، والإحتضان الكامل والوصل الباخوسي* وسط النور وتحت أجنحة الظلام ؟

لقد كافحت لتصل الى حيث بدأت ، الى النقطة الحاليّة الغامضة ، والنابضة لوجودك الراهن بعيون جديدة ، وبمذاق وشم ولمس جديد ، بعقل جديد .

ان واجبنا الإنساني العميق لا يتلخّص في ان نوضّح أو نضيء ايقاع الإله ، وانما في الخضوع له قدر ما نستطيع ، ايقاع حياتنا الصغيرة ، وعمرنا القصير .

---

* باخوس هو إله الخمر والنشوة في الديانة اليونانية القديمة .

هكذا فقط ننجح نحن غير الخالدين في ان ننجز أمراً خالداً . ذلك بتماس تعاون مع من هو خالد .

وهكذا ننتصر على التفاصيل وعلى الخطيئة المهلكة ، كما ننتصر على محدودية عقولنا ، ونحوّل عبودية المادة الترابية التي مُنحت لنا لاستخدمها في حينئذ . الى حرية .

في كل هذا وبعيداً عنه ، يندفع كل البشر ، وكافة الشعوب ، وكل النباتات والحيوانات ، والآلهة والشياطين كجيش جرّار نحو الأعالي ، منجذبين بنَفَس يستعصى على الإدراك ، ويصعب الفكاك منه .

نناضل من اجل أن نجعل هذا النَفَس مرئيا ، ولكي نمنحه وجهاً ، ولنعبأه في كلمات واستعارات ، وأفكار وتعويذات . لكي لا يضيع منّا .

لكن الاحرف الاربعة والعشرين* التي نكتب بها لا تَسَعه . وما كل هذه الكلمات والإستعارات والافكار والتعاويذ ، سوى قناع جديد يخفي الهاوية .

ولكن بهذا وحده ، أي بتحديد اللا محدود ، نستطيع داخل الدورة الإنسانية الحديثة التكوين ان نعمل . ماذا يعني ان نعمل ؟ أن نملأ هذه الدورة برغبات ومخاوف ومناشط ، وان نتوسع حتى نبلغ الحدود . وألاّ تعود الحدود تسعنا ، وان تتشقق وتتحطّم . وهكذا نفعل فعلنا فنزيد الجوهر ونوسّعه .

لذلك فان عودتنا الى الظواهر ثانية بعد اتصالنا بالجوهر ، سيكون لها قيمة هائلة .

لقد شاهدنا الدورة العليا لقوى الدوّامة اللولبيّة ، وهي الدوّامة التي اطلقنا عليها اسم الإله . كان يمكننا ان نعطيها أيّ إسم آخر من بين اسماء عدة مثل : الهاوية ، السّر ، الظلام المطلق ، النور المطلق ، المادة ، الروح ، الأمل الأخير ، اليأس الأخير ، الصمت .

لكنا أسميناها الإله ، لأن هذا الإسم وحده ظل يصطخب في اعماق

---

* أحرف اللغة اليونانية

أحشائنا منذ دهور سحيقة . ان تلك الزلزلة تعتبر ضرورية لكي نتحسس الجوهر الرهيب بأجسادنا بعيداً عن المنطق .

علينا أن ندرك ونميّز بجلاء في خضم الدورة اللولبية للألوهيّة القوس الناري الصغير لعصرنا .وعلى هذا القوس المشتعل اللامرئي نستطيع ان ندرك بعمق وسرية اندفاعة الدورة كلّها . وان نتقدّم بانسجام مع الكون ، فيتصاعد حماسنا ونحارب .

وهكذا فإن نشاطاتنا الراهنة إذ تلتحق بإندفاعة الكون بوعي ، تنجو من خطر الموت معنا .

انها لاتتبدّد في تحديقة باطنيّة راكدة للدورة الخالدة . ولاتحتقر الضرورات اليومية المقدّسة .

انّها تنحني في جدولها الدموي الضيّق وتعمل باصرار على موضع صغير ، زماني ومكاني . وهو موضع زماني ومكاني ، لانه يلتحق بالاندفاعة الإلهيّة للدورة الخالدة .

لايهمني ماقدّمته عصور أخرى . وشعوب أُخرى من الوجوه الى الجوهر المترامي الاطراف الذي لاوجه له . لقد ملأته بفضائل انسانيّة ، وعطايا وعقوبات ويقينيّات . لقد أعطت للمخاوف وجهاً ، وأخضعت الفوضى لايقاع ما ، ووجدت تبريراً أسمى للعيش والعمل . لقد أدت واجبها .

أما نحن فقد تجاوزنا الآن هذه الإحتياجات ، ومزّقنا قناع الهاوية هذا . ان إلهنا لم يعد يسعه ذلك القناع القديم .

لقد إمتلأ قلبنا بمعاناة جديدة ، وبإشعاع وصمت جديدين . لقد توحّش السر واتسع الإله .

ان القوى المظلمة ، هي الأُخرى تتصاعد وتوسع رقعتها ، وكل الجزيرة الإنسانيّة تتحرك .

فلننحنِ على قلوبنا ونحدّق دون وجل في الهاوية ، ولنحاول ان نشكّل مرّة أخرى من لحمنا ودمنا الوجه الجديد والعصري لإلهنا .

ن .لهنا ليس فكرة تجريديّة أو ضرورة منطقيّة أو بناء منسجماً هذلا من
لأفكار ولتصورات .

نه ليس محايداً لا تشوبه شائبة . وليس ذكراً ولا أنثى ، وليس خلاصة
تركيب لا رائحة له من صنع عقولنا .

نه رجل وإمرأة ، زائل وخالد ، روح وروث . يلد ويلقّح ويقتل . انه
عشق والموت معاً ، يولد مرّة أخرى ويقتل ، يرقص على الارض الفسيحة خارج
حدود المنطق الذي لايتسع للمتناقضات .

إلهي ليس كلّيّ القوة ، انه يكافح ويواجه الخطر في كل لحظة ، يرتجف
ويترنّح عبر المخلوقات كلّها ويصرخ ، يتعرّض للهزيمة بلا انقطاع ، ثم ينهض
ممتلئاً بالدم والتراب ليبدأ كفاحه من جديد .

انه مثخن بالجراح . عيناه مليئتان بالخوف والإصرار . صدغاه محطّمتان ،
وفكاه مهشمتان ، لكنه يأبى الاستسلام ، بل يتسلق بالأرجل والأيدي ،عاضاً
على شفتيه ، وهو يتقدّم الى أمام دون تراجع .

إلهي ليس كليّ الطيبة ، انه مليء بالقسوة والعدالة المتوحّشة ، انه يميّز
الأفضل دون رحمة . لا تسيطر عليه مشاعر الشفقة ولا يكترث بالناس
والحيوانات ، ولا بالفضائل والافكار ، اذ انه يحبها جميعا لبرهة ثم يحطمها
ويتقدّم .

انه قوّة تتسع لكل شيء . قوّة تلد كل شيء . تلد الأشياء جميعا وتحبّها ،
ثم تمحوها . ولو قلنا : ان الإله ريح عشقيّة تحطّم الاجساد لكي تعبر ،
ونستعيد في ذاكرتنا كيف انه يمحو الافراد دون شفقة ، وأن العشق يفعل فعله
وسط الدماء والدموع ، حينها نستطيع ان نلمح عن قرب وجهه الرهيب .

إلهي ليس حكيماً مطلق الحكمة ، اذ أن عقله بكرة خيط من النور
والظلام ، وهو يناضل لكي يبسطها في تيه الجسد .

يترنح ، يبحث ، يتحسس ذات اليمين ، يتراجع الى الوراء ، يستدير
يساراً ، يستنشق الهواء ، يتوتر قلقاً على شفير الهاوية ، يذهب بعيداً ، منقّباً

وباحثاً عبر ملايين القرون . وأخيراً يشعر بأن العتمات الطينية حول عقله قد غمرها الضوء .

أمام رأسه الثقيل الكالح السواد ، وبكفاح يجل عن الوصف يبدأ في خلق العيون ليرى والآذان ليسمع .

إلهي يناضل بلا أدنى يقين . هل سينتصر ؟ هل سيهزم ؟ لا شيء يقينياً في الكون . انه يراهن على اللايقين ، وفي كل لحظة يلعب بقدره كاملاً .

يتشبث بالأجساد الدافئة . إذ ليس له من ستر سواها . ينادي مستغيثاً ، فيعلن حالة من الطوارئ في أرجاء الكون .

من واجبنا حين نسمع النداء ان نهرع للسير تحت ألويته ، وان نحارب معه ، وأن ننجو أو نضيع معه .

ان الإله في خطر ، فهو ليس القوى المطلق لكي نعقد أيدينا ، ونتفرج ، آمنين في النصر الأكيد . إنه ليس الطيب المطلق ، لكي يملأنا الأمل والثقة بأنه سيرثي حالنا وسينقذنا .

ان الإله يتعرض الى الخطر على كل مساحة جسدنا الحاضرة . إنه لن يجد الى النجاة سبيلاً ما لم نحاول انقاذه بكفاحنا ، كما لا يمكننا انقاذ أنفسنا اذا لم تتحقق نجاته .

نحن وإياه كلٌّ واحد من الدودة العمياء في أعماق المحيط ، الى ساحة المجرّة اللانهائية . واحدٌ هو الذي يكافح ويتعرّض للخطر . انه ذاتنا . وفي صدرنا الترابي الصغير ثمة واحد فقط يناضل ويتعرض للخطر.. انه الكون .

يجب ان نحس بأننا لا نتقدّم من وحدة إلهيّة الى الوحدة الإلهيّة نفسها . فنحن لا نسير من فوضى الى فوضى أخرى . ولا من ضوء إلى ضوء آخر ، ولا من ظلام الى ظلام آخر ، لأنه اذا كان هذا سبيلنا ، فما قيمة حياتنا هذه ، بل وما قيمة الحياة كلّها ؟

لكننا نسير من فوضى كليّة القدرة ، ومن هاوية سرمديّة غليظة من الضوء والظلام ، ونكافح جميعاً : نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً في ممر البرهة

صغيرة العابرة لحياتنا الفرديّة ، لكي نضبط بداخلنا ايقاع الفوضى وـ
هوية . ونصنع داخل أجسادنا اكبر قدر من الظلام فنحيله ضوءاً .
إنّ لا نناضل من أجل أنفسنا ، ولا من اجل عرقنا ، ولا من أجل
الانسانيّة . إنّا لا نناضل من أجل الأرض ، ولا من أجل الأفكار ، لأن كل ذلك لا
يعدو كونه درجات مؤقتة وعزيزة من سلّم الإله الذي يصعد ، وهي درجات
تتحطم حال ان يطأها الإله أثناء صعوده .
في حياتنا التي تمرُّ قصيرة كلمح البرق نحس بالإله كلّه يطأنا ، ثم ندرك
فجأة لو تتملكنا رغبة هائلة وننظّم كل قوى الارض المرئيّة واللامرئيّة لندفعها الى
أعلى . لو أننا نناضل مجتمعين ونظل دائماً جنوداً ساهرين فلربما تمكنّا من
إنقاذ الكون .
ليس الإله هو الذي سينقذنا ، وإنما نحن الذين سننقذه . . محاربين
ومبدعين ومحوّلين المادة الى روح .
لكن نضالنا كلّه قد يذهب هدراً إذا ما تقاعسنا ، ولو أدركنا الخوف ، أو
تملّكنا الذعر ، فان الكون كلّه سيصبح في خطر .
ما الحياة الاّ تطوّعٌ عسكريٌّ للإله . نتحرّك فيها حاملين صليبنا ، شننا ذلك
أم أبينا ، لا لنحرر القبر المقدّس ، وانما لنحرّر الإله المدفون داخل المادة
وداخل ارواحنا .
ان القبر المقدّس هو كل جسد وكل روح ، والقبر المقدّس هو بذرة القمح
فلنحرّرها . القبر المقدّس هو العقل الذي يحترق فيه الإله وهو يصارع الموت ،
فلنهرع لنجدته .
ان الإله يعطي إشارة المعركة ، فأندفع أنا الى الهجوم مرتجفاً .
وسيان اذا ما انسحبت معتزلاً المعركة ، أو حاربت ببسالة فانني سأبقى
دائماً في أتونها .
إذا انسحبت معتزلا سيصير موتي عاقراً . وسيضيع مع جسدي وستتبعثر
روحي أدراج الرياح . وإذا حاربت ببسالة فسأهبط الى أعماق الارض كثمرة

مليئة بالبذور . نَفَسي سيهجر جسدي وسيتركه يفسد ، ثم سينظِّم أجساداً جديدة ويستمر في المعركة .

ان صلاتي ليست ندبة شحاذ ، ولا اعترافات عاشق ، ولا حسابات متواضعة لتاجر مقايضة صغير : وهبتك فاعطني .

ان صلاتي هي تقرير من جندي الى قائده : هذا مافعلته اليوم... هكذا حاربت لكي أنقذ قطاعي الخاص طوال المعركة ، هذه هي المعوّقات التي واجهتها... وهكذا أُفكر استعداداً لمعركة الغد .

أنا وإلهي فارسان نسير تحت وهج الشمس الحارقة ، أو تحت رذاذ المطر ، نتجاذب أطراف الحديث شاحبين ، جوعى ، وعنيدين .

أُناديه « ياقائدي » فيدير رأسه نحوي . وحين ألحظ معاناته تنتابني القشعريرة .

قاسية هي محبتنا ونحن نجلس على المائدة نفسها ، ونعاقر النبيذ نفسه في حانة الارض المنخفضة هذه .

وحتى يحين موعد تبادل الانخاب ، تقعقع سيوف ، وتنفجر حالات من الكراهيّة ومن العشق . نسكر برؤى مذابح تصعد الى مآقينا ، وتتهدّم مدنٌ داخل عقولنا ، ونحن مثخنون بالجراح ، ننتحب ألماً ، وننهب بلاطاً عظيماً .

ب) علاقة الانسان بالانسان:

من أعماق الظلمة يتصاعد خط مشتعل مشيراً في اتجاه اللامرئي .

ماهو واجبنا ؟ أن نصعد الخط الدامي معه .

فكل ما يندفع متصاعداً الى أعلى ويدعم الإله في صعوده يعتبر خيراً ، وكل ما ينحدر بثقله هابطاً الى أسفل ومعيقا الإله في صعوده يعتبر شراً .

كل الفضائل والشرور تأخذ قيمة جديدة ، تتحرّر من أسر اللحظة والتراب ، وتؤكد وجودها المطلق من خلال الانسان وقبله وبعده بصورة أبديّة .

جوهر أخلاقنا ليس هو خلاص الانسان ، الذي يتغيّر ضمن الزمان والمكان ، وانما خلاص الإله الذي يظل ، هو نفسه دائماً ، ذلك الإيقاع السرمدي المحارب من أجل الحريّة ، عبر التدفُّق المتنوِّع للتجسيدات والمغامرات الإنسانيّة .

نحن البشر تعساء ، عديمو القلب ، ضئيلون ، عدميُّون . لكن في داخلنا يكمن جوهر أسمى منّا يدفعنا بلا رحمة نحو الاعالي .

من داخل هذا الطين الإنساني تتدفّق أغانٍ إلهيّة ، وأفكار عظيمة ، وحالات عشق جارفة ، واندفاعٌ يقظٌ وغامض بلا بداية وبلا نهاية ، وبلا هدف ، بل وراء كل هدف .

ان الإنسانية مثل كتلة من الطين ، وكتلة الطين هي كل واحد منّا .

ماهو واجبنا ؟ ان نناضل من اجل ان تترعرع زهرة صغيرة على سماد جسدنا وعقلنا .

حارب من خلال الأشياء ، حارب من خلال الجسد ، حارب عبر الجوع وعبر الخوف ، حارب عبر الفضيلة وعبر الخطيئة لكي تخلق إلهاً .

كيف يبدأ الضوء من نجمة ثم يصب في العتمة الخالدة ويسير في مسيرة أبدية ؟

فالنجمة تموت لكن الضوء لايموت .

ناضل من خلال اللقاء المؤقت للقوى المتناقضة ، الذي يشكّل وجودك انت ، لكي تبدع أقصى ما يستطيعه الفاني في هذا العالم... ان تبدع صيحة .

ان هذه الصيحة تترك للارض الجسد الذي انجبته ، وتتقدّم في مسيرتها وهي تعمل بدأب .

عشق جارفٌ يعبر الكون ، انه كالأثير : أقوى من الفولاذ وأرقّ من النسيم .

انه يقتحم ويعبر كل شيء ، يذهب وينعتق ، لا يخلد للراحة على المواقع الدفئة ، ولا يستعبده الجسد الحبيب . انه عشقٌ على أهبة الاستعداد للقتال ، يراقب البشر ، وهم يتحركون وينهدون كالامواج ، من وراء كتفي الحبيب ، يراقب الحيوانات والنباتات ، وهي تلتحم ثم تموت . يراقب الإله وهو يتعرض للخطر . ثم يستغيث منادياً :

« انقذني » .

العشق!! هل لنا أن نطلق اسماً آخر غير العشق على هذه الإندفاعة ، التي حين تطوف ببصرها على المادة ، تسحرها ، وتبدي رغبتها في أن تطبع مظهرها الذاتي عليها . تتبيّن الجسد وتلتحم بتلك الصيحة العشقيّة المعلّقة هي الأخرى به . وتنجبا إبناً ويضيعا ، ثم يصيرا خالدَيْن عبر الإبن .

انها تقتحم الروح وتظهر رغبتها في أن تتوحّد معها . والاّ نوجد انا وأنت . تعصف على بني البشر وتعبّر عن رغبتها ، وهي تحطّم الجسد والعقل . في ان تخلط كل الانفاس فتغدو ريحاً عاتية وتصيب الأرض بالهياج .

في اللحظات الحاسمة يدفع العشق البشر بقوة ليلتحم بعضهم بالبعض

الأحمر . يتحم العدو والصديق . والطيب والخبيث . انه ريح أعمى منهم . ومستقلة عن رغباتهم وأفعالهم .

نه نَفَس الإله . إنه تنفُّسه على الارض . يهبط على البشر كيفما يشاء . في هيئة رقص أو عشق أو جوع أو دين أو مذبحة ودون ان يستأذننا .

داخل سفينة الارض ، وفي تلك اللحظات الحاسمة يحاول الإله جاهداً ان يعجن مادة الاجساد والعقول ، وان يقذف بكل تلك العجينة داخل دوامته اللولبية القاسية ، وان يعطيها وجهاً.. وجهه هو .

لا ينهكه الغثيان ، ولا يتسرب اليأس الى احشائه الترابية المظلمة . يعمل ويتقدم . يلتهم لحمهم ، يتشبث بالمعدة وبالقلب . بالذكر وبالعقل .

انه ليس رب الأسرة الطيب ، لانه لا يقسم الخبز بالتساوي بين أبنائه . فالظلم والقسوة واللهفة والجوع هي إناث الخيل الاربعة التي تقود مركبته على ارضنا المضطربة هذه .

ان الإله لا يُصْنَعُ أبداً من السعادة والرفاهيّة والعظمة ، وانما من الخجل والجوع والدموع .

في كل لحظة حاسمة تخاطر جماعة من البشر . وهي تتقدم في الطليعة ، معيدة حقيقة الإله ، وهي تحارب حاملة على عاتقها كل مسؤولية المعركة .

ذات زمان مضى ، قام الكهنة والملوك ، والنبلاء والمتمدنون . بإنشاء حضارات . وحرزوا الألوهيّة .

أما إله هذا العصر فإنه عامل متوحشٌ من الإجهاد ومن الغضب ومن الجوع ، تفوح منه روائح الدخان والنبيذ والعرق ، يلعن الآلهة . ويجوع وينجب اطفالاً ، وينتابه الأرق فلا يجد الى النوم سبيلاً . يطلق صيحاته ويتوعد فيتردد صداها في الوديان والجبال .

لقد تغيّرت الرياح . إنّا نتنفس ربيعاً ثقيلاً ومليئاً بالبذور . الصيحات تعلو . من الذي يصيح ؟ نحن الذين نصيح . نحن البشر . الاحياء والاموات . والذين لم يولدوا بعد . لكن الخوف يداهمنا فجأة فنلوذ بالصمت .

إنا نركن للنسيان بسبب الكسل والعادة والجبن . لكن الصيحة تمزق أحشاءنا مرة أخرى وكأنها نسر .

الصيحة لاتأتي من الخارج ، انها لا تأتي من بعيد . كي يمكننا ان نتحاشاها . انها تسكن في قلوبنا وتطلق نداءاتها .

«احرق بيتك» هكذا ينادي الاله ، «أنا آت . كل من له بيت لن يحظى بأن أحل ضيفاً عليه» .

«احرق افكارك . هدم تأملاتك! كل من عثر على الحل لن يعثر علي» .

«اني احب الجوعى والقلقين والمتمردين . فهؤلاء يفكرون دائما في الجوع والتمرد . وفي الطريق اللانهائي . في أنا» .

«أنا آت . دع زوجتك ، ودع ابناءك ، ودع افكارك ، واتبعني . أنا المتشرد الاعظم» .

«اتبعني! تقدم فوق الفرح والحزن . فوق السلام والعدالة والفضيلة! تقدم! حطم هذه الاصنام ، انها لا تسعني! وتحطم انت أيضا لكي استطيع العبور» .

النار! هذا هو واجبنا الاعظم . في هذا العصر . ووسط كل هذه الفوضى العديمة الاخلاق والآمال .

حارب عديمي الايمان! ان عديمي الايمان هم الهائئون والمتخمون والعاقرون .

ان كراهيتنا لاتقبل التسامح . لانها تحتوي على ماهو أصلح وأعمق من مشاعر الاحسان مما يفتح الطريق واسعاً أمام الحب .

إننا نكره ولا نتكيف . نحن غير عادلين بل قساة ومليؤون بالتوتر وبالإيمان ، نطلب المستحيل كالعشاق .

فتأتي النار لتطهر الارض! ولتنفتح أكثر الهاويات رعباً بين الخير والشر . لينتشر الظلم وليحل الجوع فيمزق احشاءنا . هذا هو خلاصنا الوحيد ولا خلاص غيره .

عصرنا هذا هو لحظة حاسمة وعنيفة . انه عالم يتحطم وآخر لم يولد بعد .
عصرنا ليس عصراً للتوازن . فلا مكان لفضائل كالنُبل والتسامح والسلام والحب أن تجد لها فيه أرض خصبة .

إننا نعيش الإندفاعة الرهيبة ، نثب على الأعداء ، وعلى الأصدقاء الذين يتخلفون وراءنا ، يتهدّدنا الخطر في أُتون الفوضى ، نشرف على الغرق ، لا تسعنا الفضائل القديمة ، ولا الآمال القديمة ، لا تسعنا النظريات والممارسات القديمة .

ان رياح الدمار تهبّ . هذا هو نَفَس الإله في عصرنا هذا .فلنذهب معه .
ان رياح الدمار هي إنجذابة الرقص الأولى لدوّمة الخلق . تهب على العقول والمدن ، تهدم الأفكار والمنازل ، تمر عبر الصحارى وتصيح «تهيّأوا... الحرب قادمة... الحرب قادمة!» .

هذا هو عصرنا ، خيراً كان أم شراً ، جميلاً كان أم قبيحاً ، غنيّاً كان أم فقيراً . نحن لم نختره ، هذا هو عصرنا ، انه الهواء الذي نتنفّسه ، والطين الذي مُنح لنا ، هو الخبز ، وهو النار ،هو الروح!
فلنتقبّل الأمر بشجاعة . ان قسمتنا ونصيبنا هو الحرب . فلنشدّ الاحزمة على خصورنا جيّداً ، ولنسلّح أجسادنا وقلوبنا وعقولنا! ولنأخذ مواقعنا في ميدان المعركة!

ان الحرب هي السيد الشرعيّ لعصرنا .
وحده المحارب ، هو الإنسان الكامل والشريف في عصرنا ، لأنه هو وحده المؤمن بالنَفَس الأعظم لزماننا في حالات دماره وكراهيته ورغبته ، ممتثلاً للمشيئة المعاصرة لإلهنا .

ان تطابقنا هذا مع الكون هو الذي ينجب الفضيلتين العظيمتين : المسؤولية والتضحية .

علينا واجب معاونة الإله ، الذي يتفجر غضباً ، لكي يتحرّر بداخلنا وبداخل الإنسان ، وداخل الجموع التي تعيش في العتمة . يجب علينا أن نكون متأهبين

في كل اللحظات ، لكي نقدم حياتنا في سبيله . فالحياة ليست هدفاً لذاتها وانما هي الأخرى أداة مثلها مثل الموت ، والجمال ، والفضيلة . أداة من ؟ أداة الإله الذي يحارب من أجل الحرية .

نحن كلّنا كينونة واحدة ،جوهر واحدٌ مهدّد . لو ان روحاً في أقاصي العالم الذي ينحدر هابطاً سقطت ، فإنها تحطّم اثناء سقوطها روحنا أيضاً . لو ان عقلاً في أقاصي العالم يغرق في البلاهة فانه يملأ أصداغنا بالظلام .

لو ان شخصاً واحداً فقط ، يناضل في أقاصي الأرض والسماء . لو ان واحداً فقط كهذا ضاع ، فإن مسؤولية ضياعه تقع علينا . لو ضاع فنحن ايضاً سنضيع .

هذا هو الأمر الذي يجعل خلاص الكون خلاصنا ايضاً . ان تضامننا مع البشر الآخرين ليس ترفاً لحنان القلب ، وانما هو شكل عميق من أشكال الحماية الذاتية ، واستجابة لضرورة حقيقية.. ضرورة تأمين سلامة من يحمي ظهرك في الجيش وانت تحارب معه .

ان اخلاقنا تتصاعد الى آفاق أكثر سمواً . فنحن كلّنا جيش يحارب ، لكننا لانعلم علم اليقين ما اذا كنّا سننتصر أم سنهزم ؟

هل يوجد خلاص ؟ هل يوجد هدف لنعمل من أجله لكي نجد خلاصا لانفسنا ؟

أم انه لايوجد خلاص ، اذ لايوجد هدف ، وكل شيء بلا جدوى ، وكل عطائنا الجماعي لا قيمة له ؟

لا هذا ولا ذاك . ان إلهنا ليس مطلق القدرة ، كما انه ليس مطلق الطيبة ، وليس واثقاً في نصره أو هزيمته .

جوهر إلهنا غامض ينضج في كل مرّة دفعة واحدة ، ربما يرجح إحتمال النصر بكل فعل شجاع نقوم به . ربما تكون كل هذه النضالات من أجل الخلاص والنصر أدنى من طبيعة الألوهيّة .

ومهما كانت الحقيقة فاننا نحارب بلا يقين . وفضيلتنا هي ألاّ نكون واثقين من مردود يحظى باحترام عميق .

كل الوصايا تبعث من جديد . نحن لا نرى ولا نسمع كما كنا نرى أو نسمع سابقاً ، ولا نكره أو نحب كما كنا سابقاً . هكذا تتجدد عذرية الأرض .

يكون للخبز وللماء وللمرأة مذاق جديد ، ويكون للفعل قيمة جديدة لا حدود لها .

كل ما يحمل سمواً مؤقتاً كالجمال والمعرفة ، والأمل والنضال الإقتصادي ، وأعباء الحياة اليوميّة تبدو وكأنها هموم لامعنى لها . في كل مكان نقشعرّ ونحن ندرك أن النَّفس العظيم المكبّل بالأغلال يناضل من أجل الحريّة .

لكلٍّ طريقه الخاص الذي يقوده للخلاص . البعض من خلال الفضيلة ، والبعض الآخر من خلال الشر .

لو أن طريقك الذي يقودك الى الخلاص يمر عبر المرض والنفاق والعار ، فإن من واجبك ان تغوص في اعماق المرض والنفاق والعار ، حتى تنتصر عليها ، ودون ذلك لن يكون لك خلاص .

ولو ان طريقك الذي يقودك الى الخلاص هو طريق الفضيلة والفرح والحقيقة . فان من واجبك ان تغوص عميقاً في الفضيلة والفرح والحقيقة ، لكي تنتصر عليها وتتركها خلفك ، إذ دون ذلك لن يكون لك خلاص .

إنّا لا نحارب شهواتنا المظلمة بفضيلة رزينة وشاحبة ومحايدة تسموعليها ، وانما بشهوات أخرى أقوى منها وأشدّ بأساً .

نترك بابنا مفتوحاً للخطيئة ، لانغلق آذاننا كي لا نسمع الحوريّات ، ولا نقيّد أنفسنا من الخوف الى سارية فكرةٍ عظيمة ، كما اننا لا نهجر السفينة ، ونختفي لنسترق السمع للحوريات ونقبّلهن ، وانما نتابع مسيرتنا ، ونختطف الحوريّات ونأخذهن الى السفينة لكي يسافرن معنا .

هذا هو تصوّفنا الجديد .

الإله يصيح في قلبي : «أنقذني»

الإله ينادي البشر والحيوانات والنباتات والجمادات : «أنقذوني» .

إصغ الى قلبك واسمعه . حطِّم جسدك واستيقظ : نحن كلّنا جسد واحد .

أحبب الإنسان لانه هو أنت نفسك .

أحبب الحيوانات والنباتات لانك كنت كذلك ، وهي الآن تتبعك مؤمنة ومتعاونة وخادمة لك .

أحبب جسدك ، فبجسدك وحده تستطيع أن تكافح على هذه الارض ، وان تحول المادة الى روح .

أحبب عناصر المادة فالإله يتشبث بها وهو يحارب ، فحارب معه .

عليك ان تموت كل يوم ، وان تولد كل يوم ، وان ترفض ماعندك كل يوم .

فالفضيلة الكبرى ليست في ان تكون حرّاً ، وانما في ان تناضل من أجل الحريّة .

لا تتواضع وتتساءل «هل سننتصر ؟ هل سنهزم ؟» بل حارب .

وفي كل لحظة من حياتك أجعل من مغامرة العالم مغامرتك .

هذه هي ايها الرفاق وصايانا العشر الجديدة .

ج) علاقة الإنسان بالطبيعة:

ان هذا العالم بكل هذه السلسلة اللانهائيّة المتنوعة من الظواهر ليس وهماً ، ولا مسرحيّة متعدّدة الالوان لمرآة عقلنا العاكسة ، ولا واقعاً محضاً يعيش ويتشكّل بحريّة مستقلاً عن قوى عقلنا .

انه ليس الرداء المضيء الذي يرتديه الجسد الغامض لإلهنا ، ولا نصف الجدار المرئي المعتم بين الإله والسر .

كل هذا العالم الذي نراه ونسمعه ونتحسسه ، هو انمتاح للحواس الإنسانيّة ، وكلّه خليط إلهي للقوتين الكونيّتين العظيمتين .

احدى القوى تهبط وهي تطمح في ان تتبعثر وان تتجمّد وان تموت . اما القوة الأُخرى فانها تصعد على أمل ان تبلغ الحريّة والخلود .

هذان الجيشان ، الجيش المظلم والجيش المضيء ، جيش الحياة وجيش الموت ، ابداً يتصادمان والآثار المرئيّة لهذا الصدام هي الاشياء والنباتات والحيوانات والبشر .

ان القوى المتصارعة تتصادم ابداً ، تتعانق وتتعارك ، تنتصر وتهزم ، تتصالح ثم تبدأ في الصراع من جديد على امتداد الكون كلّه . من المرئي في حركة قطرة ماء الى مجرّة النجوم اللانهائيّة .

إن أدنى انواع الحشرات ، وأصغر الافكار ، هي معسكر كامل للإله ، حيث يتهيأ فيها جميعاً ويستعد لمعركة حاسمة .

في أقل جزيئات الارض والسماء أهمية أسمع إلهي ينادي : «النجدة!» .

كل شيء هو مجرّد بيضة في داخلها تكمن بذرة الإله القلقة التي تعمل ساهرة ، وتصطفُ داخل البيضة وخارجها قوى لاحصر لها لتدافع عنها .

بنور العقل ، وبشعلة القلب ، أُحطم كل السجون التي تحبس الإله ، أبحث وأحاول وأدق على تحصينات المادة لأفتح فيها كوة ، ولأُنشئ عبر هذه التحصينات بوابة الخروج البطولي لإلهنا .

حارب... لاحق الظواهر بصبر وأناة لتضوّعها في قوانين ، وبذلك ستفتح طرقاً تمر على الهاوية ، وتساعد الروح على أن تجد مداها .

ضع نظام عقلك في النظام الإنسيابي للعالم . أحفر خطّة المعركة على الهاوية بوضوح . ناضل مع القوى الطبيعيّة ، ودعها تخضع للاقتران بهدف أعلى منها . حرّر الروح التي تكافح داخلها وتشتاق للإلتحام بالروح التي تناضل في أحشائك .

حينما يُسخّر الانسان ، وهو يناضل داخل الهاوية ، مجموعة من الظواهر لقوانين عقله ، ويبتدع لهذه القوانين قولاً جديراً بها ، فإن العالم يتنفّس ، وتنتظم الاصوات ، وتنضج ملامح المستقبل ، وتتحرّر كل الارقام المظلمة التي لا تحصى ، وتذعن وتستسلم للنوعيّة الغامضة .

إنّنا نتعجل ، بمساعدة عقلنا ، في ارغام المادة على السير معنا ، ونغير اتجاه القوى المتجهة الى أسفل ، واتجاه التيار ، ونحوّل العبوديّة الى حريّة .

إنّنا ونحن نخضع العالم المرئي من حولنا ، لانحرّر الإله فقط ، وانما نصنعه ايضا .

يصيح الإله «افتح عينك . أُريد ان أرى! أرهف السمع . أُريد أن اسمع! تقدّم الى الأمام . أنت رأسي!» .

ان الحجر ينجو حين نرفعه من الطين ونضعه في بناء منزل أو حين ننقش عليه ملامح الروح .

البذرة تنجو... ولكن ماذا تعني نجاتها ؟

تعني : أن يتحرّر الإله الذي بداخلها ، فتزهر ، ثم تثمر ، ثم تعود مرّة

تقوى في التراب . فلنساعد البذرة على النجاة .

لكل انسان محيطه الخاص الذي يضم مايخصّه من أشياء وأشجار . من حيوانات وبشر وأفكار ، وهو يتحمل واجب انقاذ هذا المحيط ، عليه وحده دون غيره تقع المسؤوليّة ، واذا لم يتم انقاذ المحيط ، فلا خلاص لصاحبه .

عليه مسؤوليّة إنجاز المهام الكبيرة المناطة به قبل موته ، ولن يجد للنجاة سبيلاً إن لم ينجزها ، لأن روحه مبعثرة وأسيرة هذه الاشياء ، التي يضمّها محيطه الخاص : أسيرة الاشجار والحيوانات والبشر والافكار . ولن ينجو بروحه حتى ينجز المهمات الكبيرة .

لو أنك عامل ، فأفلح الارض وهيّئها لكي تثمر . ان البذور تصيح داخل التربة ، والإله يصيح داخل البذور ، حرّره... انه ينتظر خلاصه على يديك ، ثمة حقل ينتظر خلاصه على يديك ، وثمة آلة تنتظر ان تبث فيها الروح . انك لن تجد الى النجاة سبيلاً حتى تنقذ كل كذلك .

لو انك محارب... أبعد عنك الإحساس بالرأفة ، لان الأسى لايدخل ضمن واجباتك . أقتل العدو بلا رحمة ، واستمع الى الإله يصيح من داخل جسد العدو :
«أقتل هذا الجسد فإنه يعيقني . أقتله لكي أستطيع العبور» .

لو انك حكيم ، حارب داخل الجمجمة . أقتل الافكار وأخلق أفكاراً جديدة . ان الإله يختبئ داخل الجسد . حطّم الفكرة وحرّرْه . أمنحه فكرة أرحب كي يقيم فيها .

لو انك إمرأة ، اتجه صوب الحب وأختر بجهد وتبصُّر مضنٍ من بين كل بني البشر والد أبنائك . لست انت التي تختارين وانما ذلك اللامتناهي ، الذي لا يتحطّم ولا يعرف الرحمة ، ذلك الإله الذكوري الذي بداخلك . أنجزي واجبك كاملاً . أنجزي واجبك المحتشد بالمرارة والعشق والشجاعة . قدمي جسدك كلّه ، جسدك المحتشد بالدماء والحليب .

قولي : هذا الذي أحمله في حجري وأرضعه من حليبي سينقذ الإله ، فلأعطينه ، دمي كلّه وحليبي .

السكينة:

روح الانسان شعلة متوهّجة ، طائر يقفز من غصن الى غصن ، ومن رأس ى رأس ، صائحا « لا أستطيع ان أستقر . لن أبلغ حد الإحتراق ولو بلغت فلا حد يستطيع إطفائي! »

فجأة يصير الكون كلّه شجرة من نار ، وبين الدخان والنار أقف مشتعلاً على قمّة لهب ، أقبض على ثمرة النار ، أعني النور ، ثمرة صافية ورطبة وهادئة .

ومن القمة الشاهقة أحدّق في الخط الأحمر الذي تصاعد الى أعلى . مرتجفاً ودامياً وفسفوريّاً ، وهو يزحف داخل التجاويف المبتلة لعقلي كحشرة تملكها لعشق .

ان السلالة والإنسانيّة والأرض ، والنظريّة والممارسة والإله ، ما هي سوى أطياف من تراب وعقل ، تصلح للقلوب البسيطة التي يدركها الخوف ، تصلح للارواح التي تتلقّح بالرياح وتعتقد انها تتوالد .

من أين نأتي ؟ والى أين نذهب ؟ ما معنى هذه الحياة ؟ هكذا تصرخ القلوب وتتساءل الرؤوس وهي تقرع على فوهة الهاوية .

تحرّكت كتلة نار لتجيب . حتماً سيأتي يومٌ تطهّر فيه النيران الارض . وحتماً سيأتي يوم تقضي فيه النيران على الارض . هذه هي القيامة الثانية .

الروح لسان ناري يلعق ويصارع ، يشعل النار في كتلة من العالم حالكة الظلمة . وذات يوم سيصير العالم كلّه حريقاً .

النار هي القناع الأول والأخير لإلهي . ونحن نبكي ونرقص بين الـ ذرين العظيمتين .

أفكارنا وأجسادنا تتلألأ وتتألق . أقف هادئاً بين النارين . أقول وقوى
عقلي ساكنة وسط الزوبعة : ما أقصر الزمان ، وما أضيق المكان بين النارين .
وما أشد بطء إيقاع الحياة . إني لا أجد زماناً ، ولا أجد مكاناً ، لكي أرقص
على عجل .

فجأة يصير إيقاع الحياة دوّاراً ، ويتلاشى الزمن ، وتدخل اللحظة في
الدوّامة فتصير أبداً ، وكلُّ موضع سواء كان حشرةً أم نجمةً أم فكرةً يصير
رقصاً .

لقد كان سجناً فتحطّم السجن ، وتحرّرت القوى الرهيبة التي كانت
بداخله ، ولم يعد للموضع أيّ وجود .

هذه المرتبة العليا من التمرّن الروحي تسمى السّكينة ، ليس لأن
مضمونها هو بلوغ أقصى درجات اليأس تطرّفاً ، أو أقصى درجات الفرح والأمل
رُقياً واستحالة على الوصف ، وليس لأنها أقصى درجات المعرفة ، التي تترفع عن
مخاطبة أقصى درجات الجهل العاجزة عن الحديث .

السكينة تعني أن كل من قضى فترة تطوّعه على مستوى المهام الكبرى
سيبلغ القمّة القصوى للمحاولة ، بعيداً عن كل مهمة ، حيث لم يعد يناضل أو
يصيح وإنما ينضج كاملاً بصمت وصميميّة ، متوحّداً أبداً مع الكون . لقد
اندمج بالهاوية وتصالح معها كما تتصالح بذرة الرجل مع أحشاء المرأة .

صارت الهاوية زوجته التي ينشغل بها ، يفتح ويأكل أحشاءها ويغيّر
دمها . يضحك ويبكي ، يصعد ويهبط معها ولا يتركها .

كيف الوصول إلى أحشاء الهاوية لتجعلها تثمر ؟ ليس من السهل بلوغ
الإجابة على ذلك ، لأنها لا تستسلم للغة ، ولا تنصاع للقوانين ، لكل شخص
خلاصه الخاص الذي يبلغه بحرية مطلقة .

فكما لا توجد طريقة للتعلّم لا يوجد مخلّص ليفتح الطريق ، ولا يوجد
طريق ليُفتح .

فكل من يرتفع فوق مستوى هامته ، يستطيع أن ينعتق من عقده الصغير

...مي بالتساؤلات ، وان يقف شامخاً بلا وجل وسط السكون عميق ... وناهياً ، صاعداً بلا توقف من قمة الى قمة ، مدركاً ان الارتفاع ... يغني وهو معلق على الهاوية هذه التعويذة السحرية المفعمة بالفخر :

أومن بإله واحد ، حام للحمى ، ثنائي الميلاد ، مدجج بالسلاح ، ... معددة ، عظيم القدرة ، لا كُلّي القدرة ، محارب على الحدود القصوى ، قائد ... وميرطور كل القوى المضيئة ، المرئية منها والمستترة .

أومن بالأقنعة المؤقتة التي لاتحصى ، والتي اتخذها الإله عبر القرون . وتبيّن خلف التيار المنساب بلا انقطاع ، وحدة لا تنفصم عُراها .

أومن بكفاحه الشاق والمُضني ، الذي يطوّع المادة ويجعلها تثمر كنبع يهب الحياة نباتات وحيوانات وبشراً .

أومن بقلب الإنسان ، تلك التقاة الترابيّة ، حيث يناضل حامي الحمى ليل نهار ضد الموت .

« النجدة... النجدة » هو نداؤك يا سيّدي ، أسمعه بداخلي كما يسمعه الأسلاف والذين لم يولدوا بعد ، وكل الأجناس بل الأرض كلها برهبة وفرح .

طوبى لكل من يسمع النداء فيهب ليخلّصك يا سيدي وهو يقول : « أنا وأنت وحدنا لنا وجود » .

طوبي لكل من ساهم في إنقاذك فيتوحد بك يا سيدي وهو يقول : « انا وانت كيان واحد » .

وطوبى ثالثا لكل من يحمل على كتفيه دون أن ينحني ، ذلك السر العظيم المتسامي والرهيب : حتى هذا الواحد لا يوجد وجوداً محضاً .

* * *

نيكوس الذي لم يساوم*

بقلم: هيلين كزنتزاكيس**

زوجي- كان قاسيا كمكتبة

تعرفت على نيكوس عام ١٩٢٤ . وكان لقائي الأول به مجرد صدفة غريبة . اذ دعتني صديقتي ماريكا وشقيقتها كيتي للتعرف عليه ، [illegible] الشقيقتين كانتا تعتبرانه شخصا مدهشا . وكانت زوجته السابقة غلاتيا تعيش [illegible] إفيبيري ، وأذكر انها اخبرتني حينها «انه لا يوجد شخص في [illegible] يستطيع [illegible] يحكي مثل كزنتزاكيس . لكنه قاس كمكتبة» ، ويومها قلت لنفسي [illegible] سبب واحد يدفعني للتعرف عليه ، اذ ما هي فائدتي لكزنتزاكيس [illegible] في الحادية والعشرين من العمر ، ثم إني غير مثقفة ويتيمة . فقد توفي [illegible] في سن مبكّرة ، ولم أكمل سوى المرحلة الثانوية ، ولم اتجاوزها [illegible] كانوا يرددون «ان اليتامى لايتعلمون» .

خلاصة القول لقد تعرفت على نيكوس خلال إحدى [illegible] رحلة الى بانديلي (ضاحية على اطراف مدينة اثينا) . (كان [illegible]

---

* عنوان المقال من إختيارنا ، وهو في الوقع عنوان الكتاب الذي الفته هيلين عن زوجها [illegible]

** نشر هذا المقال في مجلة «تاخذوروموس» أي (المبريد) اليونانية صيف [illegible] بالذكرى المئوية لميلاد زوجها نيكوس كزنتزاكيس

المساء . ومنذ اللحظة الأولى وقع في غرامي ، في نفس تلك الليلة.. ليلة لقائنا الأول ، وقال لي «لن نفترق أبداً» و «لو اردت الذهاب فلن اتركك تذهبين» . كان ذلك قبل يوم واحد من عيدي (عيد الاسم عند اليونانيين) .

كنا نتخاطب بصيغة الجمع

في البدء كنت أنظر الى كزنتزاكيس كأستاذ ، ولم يدر في خلدي اطلاقا بأني ساقع في حبه . كان شخصا ناضجا بينما لم أكن بلغت سن النضج بعد . ومنذ ذلك اليوم بدأنا التخاطب بصيغة الجمع . واستمر ذلك حتى وفاته . لقد تعودنا على ذلك حتى صارت صيغة الجمع ، التي لا يستخدمها الناس في حياتهم اليومية ، صيغة المفرد بالنسبة لنا .

استمرينا على التخاطب بصيغة الجمع كما بدأنا في بداية تعارفنا . كنت ، ليتكم تعلمون ، أشعر باحترام واعجاب شديدين نحوه . في البداية صرنا صديقين وانتظرني حتى بلغت مرحلة النضج فأتخذني زوجة له ، لكن صيغة الجمع بقيت ثابتة في تخاطبنا المشترك . وفي بعض الاحيان كان يبدأ حديثه بصيغة المفرد وبعد ان يسترسل قليلا ينفجر ضاحكا . كانت صيغة المفرد تبدو لنا غريبة ، وفاقدة للحنان ، هكذا اعتدنا على صيغة الجمع .

زوجتي.. رفيقتي

منذ عام ١٩٢٨ صرت أعيش معه كزوجة . لكن زواجنا الطقوسي لم يأت إلاّ بعد ١٨ عاما ، اذ لم يعقد على طوال تلك المدة ولم يضايقني ذلك اطلاقا . لا أستطيع ان أتصوّر حالنا لو ان والديّ كانا على قيد الحياة . بالطبع لم يكن معقولاً ان اترك بيتي واذهب لاعيش مع رجل ما . لكن المعجزة حدثت . ان الأجيال التي تعيش الآن تستطيع ان تفهم مثل هذه الاشياء . ولكن في ذلك الزمن كان وضعنا يعتبر امراً خارقا . وهكذا تركت منزلي وذهبت لأعيش معه ولم يبدر من أيّ أحد ما يعكر ذلك . حتى أعمامي الذين ينحدرون من أصول

رستقراطية ظلوا يستقبلونه بترحاب حين كنا نزورهم في منازلهم رغم انهم كانوا ضيِّقي الأُفق . ولم يغلق أيّ أحد بابه في وجهي بسببه ، بل كانوا يكنون له احتراما خاصا ، ويعتبرونه شخصا مختلفا ، لكن كزنتزاكيس نفسه لم يقدمني لأيّ شخص بعبارة « هذه صديقتي » وانما كان يقول لدى تعريفي « هذه رفيقتي.. هذه زوجتي » .

في تلك الفترة كان كزنتزاكيس كثير الأسفار ، ولقد رافقته في بداية علاقتنا الى القدس وقد سمح لي وليّ أمري بالذهاب معه بعد ان اصطحبت معي صديقتين كن السبب ، كما اسلفت ، في تعرفي على كزنتزاكيس . وحينها وجهني نيكوس بالذهاب الى صحيفة « كل يوم » لأحصل منها على بطاقة صحافية ، تساعدني على السفر ، مقابل أن أكتب فيها مشاهداتي في القدس . وحين عدنا إلى اليونان نشرت فعلا مقالات في الصحيفة المذكورة ، كما نشر هو مقالات في صحيفة « القول الحر » .

وحدي في باريس

في عام ١٩٢٦ اعتقدت ان نيكوس سينتدب للعمل في احدى الصحف في باريس ، فذهبت إلى صحيفة « كل يوم » التي وافقت على أن اكون مراسلة لها في باريس مقابل مرتب شهري قدره ثمانمائة فرنك . وهكذا توجهت الى باريس لكن كزانتزاكيس لم يستطع السفر ، وظل يكتب لي يوميا على أمل ان أجد له طريقة تساعده على الوصول الى باريس .

لقد احتفظت بكل الخطابات التي كتبها لي طوال حياته ، والتي تبلغ الخمسمائة خطاب تقريبا . كان هو أيضا يحتفظ بخطاباتي الى أن احرقتها لأنها عديمة الأهمية . وحين توفرت له فرصة السفر الى باريس لم يكن يملك مالا . وكان يعاني من فقر مدقع ، كما لم يعطوه نقودا للسفر ، وهكذا لم يأت فبقيت هناك وحدي ، لكنه سافر في فترة لاحقة الى مصر وسيناء مع صديقه الرسام كالموخا ، أما انا فواصلت تزويد الصحيفة من باريس برسالتين

كل اسبوع ، وحين اعتلت صحتي وعاد نيكوس الى اليونان رجعت انا ايضا .
بعدها سافرنا الى روسيا ، ومن هناك كنت اكتب لصحف فرنسية .
أمضينا عدة شهور في روسيا وانتقلنا من موسكو الى بيكوفو ، ثم نزلنا على طول نهر الفولغا مرورا بجورجيا وارمينيا والقفقاز . ومما سهل سفرنا ان الروس سمحوا لنا السفر بالقطارات والبواخر مجانا ، كان ذلك عام ١٩٢٨ .
فاتني هنا أن أقول إن كزنتزاكيس سافر بمفرده الى سيبريا ، والسبب هو ان مرافقنا «بنابيت» انفق كل ما كانا جمعاه هو وكزنتزاكيس من الاموال بفضل المقابلات وسيناريوهات الافلام التي اعداها وقاما ببيعها للروس . لقد ارتكب كزنتزاكيس خطيئة كبرى حين قال لصديقه «يجب ألاّ يصرف كل منا بطريقته . سأعطيك النقود وأترك لك أمر صرفها» ، لكن صديقه بدأ يسأل كل من يزورنا «كيف تحتمل مثل هذه الاسنان البشعة ؟ سأعطيك نقودا لتغيير أسنانك» أو «ما هذه النظارات السيئة التي ترتديها ؟ سأعطيك نقودا لتشتري غيرها» . وفي أحد الايام فاجأنا قائلا «لقد نفدت كل النقود ولا نملك ما يكفي للعشاء» . لقد نفدت كل النقود التي اعتقدنا انها كانت ستكفينا لزيارة اليابان ايضا . حزن نيكوس لذلك ، لكنه لم يغضب ، غضبت أنا من نيكوس لأنه لم يتكلم في الأمر . وقلت له «ألا تكلمه!ألا تكلمه!» فأجابني بهدوء «وما قيمة ذلك . إني أتكلم حين يكون إصلاح الأمور ممكنا» . هذه القضية لم تؤثر على الصداقة التي كانت قائمة بين كزنتزاكيس وبنابيت الى ان جاء السبب الكافي لإنهائها ، والسبب هو ان بنابيت كان يمر حينها بأزمة حادة ، حتى انه لم يستطع الكتابة . اما كزنتزاكيس فكان يكتب المقالات ثم يأتي بنابيت ليظهر اعجابه بها ، ويذيلها باسميهما . وبعد حين اتضح ان بنابيت كان يستبعد اسم كزنتزاكيس من المقالات وينسبها لنفسه . ولما كان كزنتزاكيس حتى ذلك الحين غير معروف خارج نطاق اليونان ، فان المقالات لم تنشر أبداً وضاعت وكان هذا السبب كافيا للقطيعة بينهما .

والسبب الأساسي لمغادرتنا روسيا هو أن كزنتزاكيس وصديقه كانا بديا تعاطفا مع أحد الشيوعيين الطاعنين في السن لظلم حاق به من السلطة . ويبدو أنه كان تروتسكيا . أما أنا شخصيا فقد أعجبت كثيرا بموسكو . لقد وصلنا جولتنا وتركنا روسيا الى تشيكوسلوفاكيا ثم الى المانيا . وفي بعض الأحيان كان نيكوس يملي عليَّ فأكتب ، لكنه كثيراً ما كان يعطي الأصول المكتوبة كلها للناشرين ونبقى نحن صفر اليدين .

في أحد الأيام قلت له ان تراجيديا (قسطنطين باليوبولوس) لاتعجبني فمزقها أمام عيني ، لكني حين قلت له إن مقدمة الأوديسا لا تعجبني ولا أفهمها أجابني قائلا : «لست على حق... سأتركها كما هي» ولم يمسسها بأذي .

حين اعطاني كتاب «تصوف» عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون ، لكنني ما زلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل أعماله . لقد كان العمل الأول الذي طلب مني أن اقرأه . حينها لم أكن قد بلغت سن النضج بعد . وكنت أقرأ روايات فيكتور هيجو وغيرها من الروايات الفرنسية .

يبدو انه كان قد تعب من زوجته الأولى غلاتيا وأراد ان يسلك طريقا معاكسا تماماً . أتصور أنها كانت أرهقته بمحاولاتها المهووسة ، وهي تلح عليه المرة تلو الأخرى لكي يصير شيوعيا ، ويذهب ليقتل ميكاذو ، لكنها هي نفسها لم تكن شيوعية . إني لا أرى فيها ما يدل على الشيوعية ، فهي سيدة برجوازية طيبة ، ولست أنا التي تقول ذلك وانما شقيقتها هي التي كتبت ذلك . لقد كانت امرأة تقدمية تطالب بالحرية للمرأة ، وقد كتبت موضوعات جميلة عن المرأة .

كانت غلاتيا جميلة وجذابة ، ولا يستطيع احد الجلوس اليها ولو لبرهة قصيرة دون ان يحبها ، رغم ما تطلق من شتائم حين تغضب ، لكنها على أيِّ حال لم تستطع العيش مع كزنتزاكيس . كانت دائمة القلق ولم تستوعب ما كان يكتبه كزنتزاكيس . كانت تعتقد ان كل ما يكتبه هو مزيف ، وانه لا

يتقن فن الكتابة!! من الذي لا يعرف الكتابة ؟ هل كان على نيكوس كزنتزاكيس ان ينتظر غلاتيا لتعلمه الكتابة! ؟ .

وحين أعيد الآن قراءة أحد كتبها فاني استبعدها من قائمة الكتاب العظام ، ولكن في ذلك العصر كنا نراها عظيمة .

أحبها نيكوس حبا جماً ، لقد ساعدته كثيرا بأن دفعته في اتجاه التقدم . ولم يصبح شيوعيا ، لكنا لا نستطيع ان نتكهن بمصيره حينذاك في هيراكليون (عاصمة جزيرة كريت اليونانية) لو لم تكن غلاتيا معه . كانت غلاتيا ضد الأوضاع السائدة في عصرها ، كانت تدخن وترتدي البنطلون ، وكانت جذابة بصورة تفوق الوصف .

لكن نيكوس لم يكن يميز بين النساء اللواتي عبرن حياته ، أحب من أحب حتى النهاية ، وحفظ جميلها عليه ، هن أيضا أحببنه ، وغادرن الحياة ، واسمه على شفاههن ، لكنه لم يرتبط بهن مرة أخرى . نهاية كل علاقة كانت نهاية أبدية لا يبقى منها سوى الحنان الانساني . أما العلاقات الجنسية فكانت تنقطع نهائيا ، ويبقى نيكوس بعدها سماءً صافية . كان زوجا وفياً وكان ذلك شيئا من طبعه . هكذا كان مع غلاتيا ، ومع إيللي لامبروزو الفيلسوفة ، وراشيل مينخ الشاعرة ، وإيريس لاتفي المدهشة .

يقولون عنه انه لم يحب النساء بدليل انه قدم خلال كتاباته نماذج سلبية عنهن ، لكن ألم يكتب في «تقرير الى الجريكو» قائلا : «ان كل ماهو خير في حياتي منحتني إياه النساء» .

كانت ايللي لامبروزو قد اشترطت عليه إنها لن تزور منزلنا إلاّ في غيابي ، فرد عليها «ولن تدخلي منزلنا ابدا الاّ اذا كانت هيلين حاضرة» . وهكذا فإنها لم تأت أبدا الى منزلنا . اما كزنتزاكيس فكان يقول لي بين حين وآخر «سأذهب لزيارة إيللي» ، وكنت أرد عليه «اذهب يا عزيزي» ، لم اكن اشعر بالغيرة تجاه ماضيه ، فهذا شيء يخصه وحده .

لم نفعل أيّ شيء لنمنع أنفسنا من الانجاب ، إلا أننا لم ننجب ، ربما

كانت حالتنا الصحية هي السبب ، لكن نيكوس إعترف لي ذات يوم انه ولذ... خف بنتا فانه ما كان ليستطيع ان ينام نوما هادئا . ولكان حاله مثل الكريتيين المتقدمين في العمر ، وكان سيسأل « متى عادت ؟ » و « الى اين ذهبت ومع من ؟ » ولعجز عن الكتابة لانشغال عقله بها . كان سينزعج لأسباب اخلاقية ، ويتحول الى كريتي حقيقي . لقد اعترف لي بكل هذه الاشياء التي لا تصدق .

كانت حياتنا مرحة ، ولم يكن يغضب ابداً . أتذكر انه غضب عني مرة واحدة ، لكن غضبه لم يدم أكثر من دقيقة واحدة . كان يزعجه ان يرتدي قميصا لذلك كان يرتدي بدلته على البيجاما عندما نخرج للنزهة . فقلت له ذات مرة « ماذا سيقول الناس... سيقولون إن هذه المرأة تعتني بنفسها ولا تعتني بزوجها » ، فرد قائلا «لقد جلبتي الكدر الى هذه النزهة» . لكني واصلت اصراري قائلة «من الآن فصاعداً يجب عليّ أن اراقبك لأرى كيف ترتدي ملابسك» ، وهكذا عدنا ادراجنا الى البيت . كان الناس يعرفونه ويحبونه ويحترمونه . كان رزينا يستحق الحب .

من الذكريات التي لا تنسى أننا قابلنا بيرفيلي ذات يوم في شارع «استاذيو» في أثينا . كان بيرفيلي يتحدث كل يوم في الاذاعة ضد نيكوس متهما اياه بموالاة منظمة « إيام » ومناصرة البلغار ، وغير ذلك من التهم . اندفع بيرفيلي نحو كزنتزاكيس وقال له « يا عزيزي نيكوس لا تصدق ما اقوله في المذياع . انها الضرورة والحاجة . يجب ان تعلم إني اكن لك كل حب » . ثم انحنى وقبل كزنتزاكيس الذي لم يغضب منه ابدا . ولو كنت مكانه لقلت لبيرفيلي «ألا تخجل أيها المسكين .... إنك مجرد بصقة .ما هذا الذي تقوله الآن!! » .

لم يكن يملك ذاكرة سوء . ذات يوم عثرنا بين حوانيتنا على نحت من الفضة للثائر اليوناني كالوكتروني ، وكانت لي رغبة شديدة في أن اعلقه على جدار منزلنا . لكن نيكوس قال لي انه ينوي ارساله للكاتب ميلاس ، الذي الف كتابا عن كالوكتروني . فقلت له «هل سترسله لمن يكيل لك الشتائم المرة تلو الاخرى!! ؟ » فأجاب « كتابه جيد... بل هو كتاب عظيم » .

عشنا فقراء

حين كانت تنتابه الرغبة في الكتابة كان يجلس على مكتبه ، أما في الأسفار فكان يكتب على سريره . لم يكن وجودي يزعجه رغم زلاّتي الكثيرة . أذكر انني ناديته يوما من الطابق العلوي قائلة «نيكوس... كيف تُكتَب كلمة الوراثة ؟ » فأجابني على سؤالي ، وبعد قليل ناديت أساله عن معنى احدى الكلمات فرفع قلمه الى أعلى قائلا : «الى متى ؟ » فاجبته «الى الابد » وأضفت «هل تريد ان أعدّ لك قهوة ؟ » فأجاب «نعم» .

لم يغضب يوما ، ولم يقل لي لقد اضعت تسلسل افكاري . كان يرفع قلمه ويقول «الى متى ؟ » كان يتمتع باخلاق رفيعة ولم يكن يلقي على عاتقي المشاكل التي تضايقه . مواردنا الاقتصادية كانت محدودة . صحيفة « كل يوم » هي الوحيدة التي انتظمت لبعض الوقت في اعطائه مرتبا شهريا حين كانت تستكتبه . لقد عشنا فقراء . وصدق كزنتزاكيس في ما يردده أهله الكريتيين من قول وهو : «حين تكون بصحبة رفيق جيد فان الفقر والجوع لا يعنيان شيئا » .

استغرق بناء منزلنا في جزيرة ايجنه زمنا طويلا . لقد بنيناه على مراحل ، وساعدتنا الاسفار في ان نقتصد لنكمل بناءه ، اما الطعام فكان يكفيه القليل من الفواكه .

صار قديسا

حين أُعيد له اعتباره أطلق زفيرا عميقا وقال«لقد جاء متأخراً ، وهو لايهمني الآن على الاطلاق » . وكان حينها يعاني من المرض ، اما انا فقد حلّقت عاليا من الفرح لأن الكريتيات الجميلات صرن يزرننا . كان يقول لي «لا تصدقيهم يا عزيزتي... انهم لايدرون ما يقولون » . كان قد تخلى عن المظاهر الخادعة ، واقسم انه صار قديساً خلال سنواته الاخيرة . صار يستمتع

بحساء السمك ، وبالتين الذي يقطفه كل صباح ، وكان يقدس الشمس و عنب ، لكنه كان يحترق في قرارة نفسه من اجل اكمال اعماله .

أراد ان يعيش اثنتي عشرة سنة أُخرى . فلقد ظل مقتنعا بانه سيعيش مثل غوته الالماني اثنين وثمانين عاما ، لكنه مات في الرابعة والسبعين وليس في الثانية والسبعين كما اشيع . لقد وجدنا خلف لوحة عائلية في المنزل التاريخ الحقيقي لميلاده والذي هو عام ١٨٨٣ وليس ١٨٨٥ كما كانت شقيقته تقول .

كيف ضاعت جائزة نوبل ؟

كان يقول لي معلقا على الانتقادات والاساءات التي تصدرعن ميلاس «دعيه يا عزيزتي يقول ما يريد فلا أحد يهتم به»... إلا أن هذا السلوك الاخلاقي لم يشفع له امام اعدائه ، فبذلوا جهدهم لحرمانه من جائزة نوبل للآداب . وقتها كان صاحب صحيفة «الإستية» سفيرا لليونان في ستوكهولم ومن هناك واصل شن حربه على نيكوس . الجميع كانوا يعلمون انه يستحق الجائزة وقد فقدها بصوت واحد . كتب لي البير كامو يقول ان كزنتزاكيس «يستحق هذه الجائزة مائة مرة أكثر مني» . كتب نيكوس وهو على فراش الموت خطابا لالبير كامو يهنئه بنيل الجائزة . وكنت انا من اوائل الذين كتبوا يهنئون الشاعرين اليونانيين سيفيريس وإليتيس بعد حصولهما على جائزة نوبل .

بعد مرور عشر سنوات على وفاته اصدرت كتابي «الذي لايُساوم» . وحتى ذلك الحين لم يكن في استطاعتي أن أمس خطاباته . لكني بدأت أولاً باستنساخها على الآلة الكاتبة لكي لا يضيع منها أيّ أثر شخصي ، ولكي لا أرى خط يده . ثم أخذت من الخطابات كل ما يساعدني على إضاءة كزنتزاكيس الكاتب وترجمته الى اللغة الفرنسية . بعد ذلك اصدرت الكتاب بالفرنسية ولم أُترجمه لليونانية الا بعد عشرين عاما .

هو نفسه طلب مني ان اكتب . قال لي «أكتبي انت ، سيقولون الكثير من الاكاذيب عن اسطورة كزنتزاكيس التي ستلوكها الألسن . اكتبي انت لانك تعرفيني» . وكنت ارد عليه «هذا مستحيل.. هذا مستحيل» .

ليقولوا ما يشاؤون ، غير ان الحقيقة هي ان كزنتزاكيس كان متدينا تدينا عميقا . بحث عن الاله لكنه لم يقل.. ها.. قد وجدته . وآمنت به ، انه يؤمن بقوة أعلى منا تحركنا . كان يبحث لاكتشاف حدود دورنا ، وماهية وجودنا على هذه الارض . وكان معنى الاله بالنسبة له هو ان نكون أحسن مما نحن عليه . أنا ايضا أرى أن هنالك قوة بداخلنا تدفعنا الى الكمال .

لم انحدر من بيت متدين وكنا نذهب انا ونيكوس الى الكنيسة يوم الجمعة العظيمة «من ايام عيد الفصح» . تعجبني كثيراً خطبة الكنيسة ، وأحب شعائر الاسبوع المقدس لدرجة الجنون ، خصوصا حين يكون هنالك من يجيد التلاوة .

يقولون انه كان شيوعيا ، لكنه في الحقيقة كان معارضا لكل المؤسسات السائدة . كان يريد للانسان ان يتحرر بارادته ، وان ينعتق من أسر المؤسسات الزائفة .

عشت كل هذه السنوات لان ذكراه تعضدني . سألونا ذات يوم «هل لكم أبناء ؟» فأجاب «كتبي هي ابنائي» .

انني مناضلة وأُعضّد الحق قدر المستطاع . أود لو استطيع النضال من اجل شيلي ومن أجل افريقيا ، هناك حيث يعانون الجوع . لقد احببت اليونان لكنني عانيت الكثير فيها . كان يمكن ان أُقدم شيئا ذا قيمة . لقد كان نيكوس يقول لنا «احمدوا الله انكم مرضى ، إذ لو كنتم أقوياء لأدرتم العالم رأسا على عقب» .

الفهرس